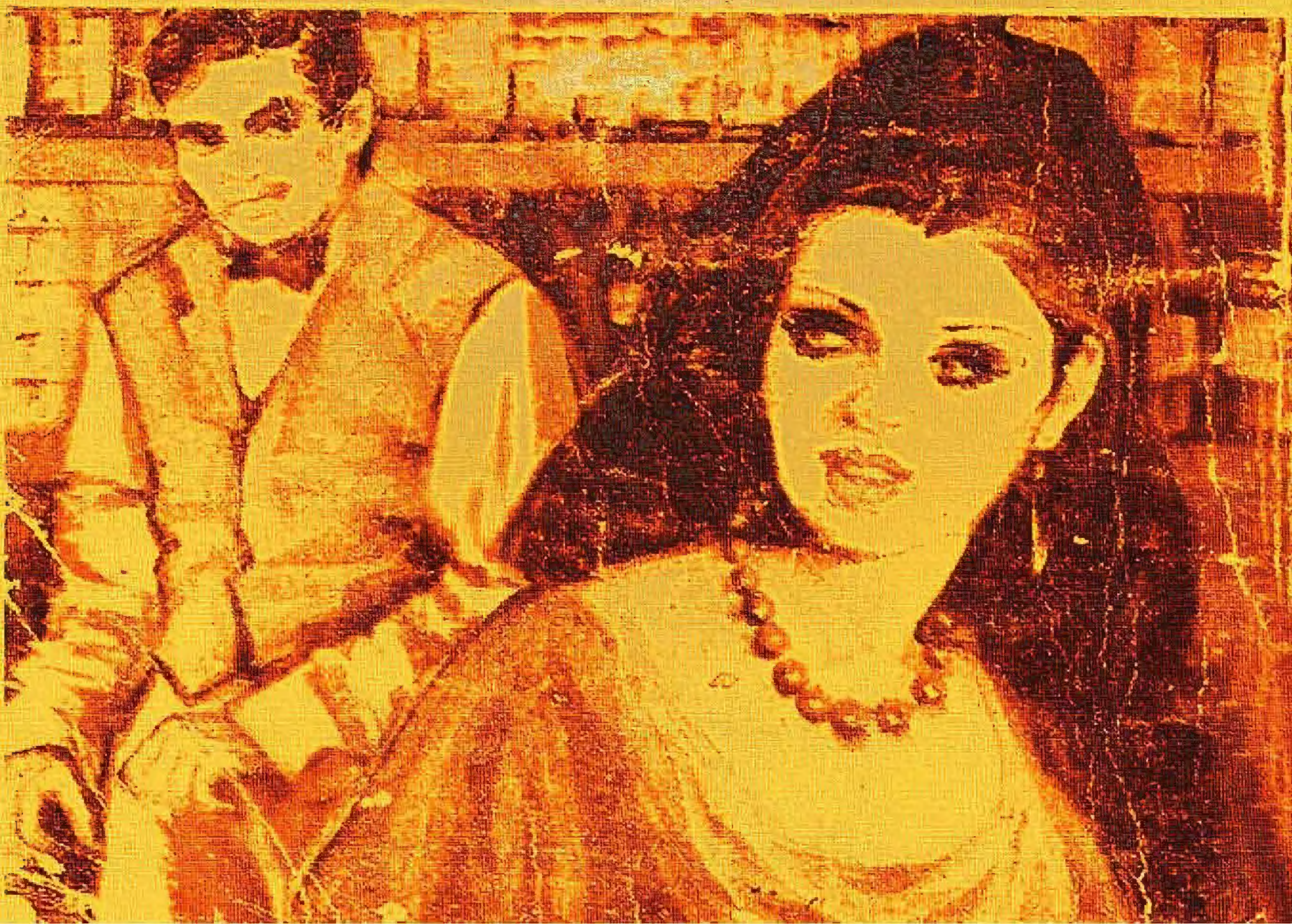
روايات الهلال

شتاء الأحزان

جون شتاينبك



روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٥٦ ـ اغسطس ١٩٧٨ ـ رمضان ١٣٩٨
No. 356 — August 1978

رئيسة مجلس الإدارة : **أمينة السعيد**

نائب رئيس مجلس الإدارة : **صبرى أبو المجد**

رئيس التحرير : **الدكتور حسين مؤنس**

سكرتير التحرير : **موسى عبد**

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى جمهورية مصر العربية ١٥٠ مليما • عن الكميات المرسلة بالطائرة ـ في سوريا ولبنان ٢٠٠ قرشا ، فى الاردن ٢٠٠ فلسا ، فى العراق ٣٠٠ فلسا ـ فى الكويت ٣٠٠ فلسا ـ فى السعودية ٣٫٥ ريال سعودى

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٥٠ قرشا صاغا ـ فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٢٫٥ جك والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • وفى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية • والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب •

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بالقاهرة
التليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »

شتاء الأحزان



جون شتاينبك



محمود مسعود



دار الهلال

مقدمة

أزجى الينا الـكاتب الأمريكى الأشهر « جون شتاينبك » فى هذه الرواية قصة فياضة بالقوة حافلة بالحياة والمرح والحب ، تصور فى واقعية اخاذة مقترنة بالتحليل الدقيق انماط حياة شخصياتها الفريدة وصراعاتها فى تلك البلدة الصغيرة باقليم نيوانجلند الأمريكى، وخاصة « ايثان » بطل القصة الذى يستهويه صراع الحياة العنيف ومغرياتها التى تعصف بالنفوس وتخلخل القيم ، و « ماروللو » الايطالى رب المال المحنك الذى يعمل « ايثان » أجيرا عنده ويتلقى فى مدرســته أسرار المهنة وأصولها ، و « مارجى » المراة المغرية العابثة التي لا تكل من نصب شراكها حول الرجال ولاسيما « ايثان » مستعينة فى ذلك حتى بالسـحر وقراءة الطالع ـ وكيف يبـدأ « ايثان » حياته مجدا كادحا مؤمنا بالفضـائل ، فاذا لاحت له بوادر النجاح ضعف أمام اغراءاتها القوية متأثرا فى هـذا بحياته الـكادحة وظروفه العائلية العانية وبيئته الانتهازية المتنافسة حتى يكاد يتخلى عن استقامته ومثله الطيبة ليجد طريقه فى النهاية وقد تفجرت فيه الألغام وانطمست المعالم وأبهمت السـبل ، حتى اذا ضاقت الدنيا فى وجهه سعى الى التخلص من حياته لولا بصيص ضياء لاح له لـكى يعدل عن عزمه ويرتد الى الجادة .

بيد أن هذا المجمل لاينبغى أن يحجب عن النظر تلك الملابسات الدقيقة التى اقترنت بأحداث الرواية والتى توخاها المؤلف وهو يعرض لنا تسلسل الأحداث وتشابك الوقائع لـكى يجعل منها مادة فكرية تتجاوز نطاقها المحلى المحدود الى الدائرة الانسانية الأوسع التى تتشابه فيها نحائز الناس وغرائز البشر وتضطرب على مسرحها شتى النوازع من خير وشر ومن فضائل ورذائل ومن مثل عليا تستشرفها القلة المختارة ومطامع مادية يتعلق بأذيالها السواد الأكبر، بحيث اذا تعمقت القصة ونفذت الى مراميها لم تجدك تقرأ سياقا قصصيا ممتعا وحسبه ، وانما الفيتك تستشعر أحاسيس مشتركة تكاد تتفاعل فى كل بيئة مجردة عن المكان والزمان ، وتجاوبا فـكريا

نابعا من الانتماء الى البشرية فى عمومها . وربما كان من الخير أن نعرض لهذا بشيء من التعقيب دون مســـاس بالسياق القصصي او الدخول فى صميم الأحداث حتى لا تفوت القارىء متعة الجدة وطلاوة المتابعة .

ولعل أول ما يعرض لنا من هـــذا هو قضيـــة العلم والعمـــل وصلاتهما الوثيقة بمعترك الحياة . فقد نبغ « ايثان » بطل القصة فى العلوم الانسانية التى صقلت فكره وشحذت مواهبـــه وانارت بصيرته فلم يعد مجرد الانسان العادي الذى يساق فى خضم الحياة دون ارادة ولا وعى أو تدبر ، وانما هو يتناول بالتفكير والتحليل والتأمل كثيرا مما يعرض له فى حياته ــ احداثا واناسا ــ على نحو يفتح أمام القارىء منافذ عديدة يتأدى منها الى أطوار النفس البشرية وادق خلجاتها وخوافيها ، الى حد انه يتخذ لنفسه ملاذا بين شعاب الكهوف البحرية يخلو فيه الى نفسه كلما حزت به الأمور واعيته سبل التصرف لـكي يجد فى هداته من الصـــفاء النفسى والاشراق الفكرى ما يبدد الظلمات ويهديه الى وجوه السداد ــ ذلك وهو مجرد بائع فى محل بقالة لاينال من الأجر ما يمسك عليه حيـاته وحياة أسرته . الا ترى ان اختيار المؤلف لشخصية هذه سماتها انما هو اختيار بارع أن كان يترجم عن تصـــــويـر الانماط العيش السائدة فى المجتمع الأمريكى ومايماثله من المجتمعات الغربية الأخرى من حيث اعتبار العلم والتعليم لا مجرد سلاح يتوسل به الانسان لشق طريقه فى مفاوز الحياة وانما هو منفذ الى غاية أسمى وهى صقل هذه الحياة المادية بما يسبغ عليها الطابع الجمالى بكل عناصره الفكرية والنفسية والروحية والمعنوية حتى تصبح الحياة فى النهاية أسمى من مجرد تحصيل « لقمة العيش » واحفل بالتذوق والمتاع؟ ثم الا يسوقنا هذا الاختيار الى مقارنة محتومة ــ مجرد مقارنة ــ بين مايتوخاه شبابنا من التعليم ــ ولا نقول العلم ــ من مجرد التلقين والتحصيل لنيل الاجازة الجامعية والفوز بعـــدها بالوظيفة العامة كمحط ينتهى عنده كل هدف ويجمد أو ينعدم بعده كل سعى للتزود من العلم بما يحفظ على الفرد كيانه الانسانى وذاتيته المتميزة فى مجتمع نابض بالحيوية الفكرية فى كل مجال ؟ للقارىء أن يضيف الى هذا ما يشاء ، وأن يخلص فى النهاية الى ان انبعاث شبابنا الى هذه الوجهة التعليمية العلمية بكل أو بعض مقوماتها كفيل بتغيير حياتنا الفكرية الرتيبة والتخفيف من أوجه القصور والتعثر والحيرة

التى يعانى منها شبابنا ومجتمعنا والارتفاع بها الى مستويات وذرى خليق أن يبلغها شبابنا وهو على ذلك قـــدير وله أهل اذا وعى وتدبر وصمم .

وقضية ثانية نستشفها من أحداث الرواية هى قضيـــة الفقر والغنى وصلتها بالحياة التى يحياها الناس . كان « ايثان » بطل القصة سليل أسرة ذات حسب ونسب ، فلما ذهب عنها الجاه والمال واتجه الشاب الى العمل والكدح لكسب القوت مستمسكا فى ذلك بأسباب الاستقامة اذا كل من حوله يعيرونه بفقره : زوجة تثقل عليه بمطالب البيت والأولاد وتهيب به الى الاستزادة من المال لكى يكفل لهم رغد العيش ويدفع عنهم المذلة بين النـــاس ، ومجتمع متكالب على المال يسعى الى اقتنائه بكل الوسائل مشروعها وغير المشروع ، واغراءات تعرض له وتلح عليه ليقتنص بدوره مايستطيع حتى لو توسل الى هذا بقبول الرشوة والسطو على المال . فماذا يكون مسلكه بين هذه المحاذير التى يأبى عليه طبعه الوقوع فى مزالقها وينأى به فكره المتدبر دائما عن التردى فى مهاويها ؟ انه رغم ذلك يريد المال والغنى — لا لذاتهما — ولكن لكى يحقق لأسرته ما تطمع فيه ولكى يتساوى مع الأنداد والجيران . وهو يسلك الى هـــذا سبلا متعددة حرص فى بعضها على الاستمساك بنواميس الاستقامة وجرفه التيار فى بعضها الآخر الى التفكير الآثم لالتماس المال غصبا ، لولا أن تداركته المقادير وعصمته من التورط الفعلى فى الاثم وهيأت له من المال والجاه ما هو حقيق أن يبدل حياته .

وقضية ثالثة يطرحها « جون شتاينبك » من خلال هذا العرض القصصى الشائق ، هى قضيـــة الأبناء وتنشئتهم مزودين بالعلم والخلق . فنرى ابن « ايثان » الصبى اليافع يكاد ينصرف عن التفرغ للتعليم متعجلا للشهرة والمال عن طريق المسابقات التليفزيونية التى تتنافس الشركات الاذاعية فى تقديمها ، وقد أدى به الجنوح فى هذا المسلك الى افتعال نجاح فرحت به الاسرة أول الأمر ، وعندما تجلى زيفه كان مخيبا لآمال الأب مقوضا لكل هذه القيم التى كان يسعى الى غرسها فى نفس ولده ، حتى لقد كانت هذه الصدمة أشد العوامل التى دفعت به الى التفكير فى وضع حد لوجوده كله لولا ذلك الضياء النفسى الذى يلوح له فى اللحظة الأخيرة لكى يرد عليه ايمانه وينفض عنه عوادى الخذلان واليأس .

وقضية رابعة ساقها المؤلف هي قضـــية الانزلاق الى الخطيئة بتأثير المغريات النسوية التى ظلت تحاصره بها تلك المراة العابثـــة اللعوب رغم اصطناعها الصداقة لزوجته . فهل يستطيع حبــه لزوجته ووفاؤه لابنائه ان ينأى به عن الاستسلام للغواية ويعصمه من الزلل ؟ للقـــارىء أن يستخلص النتيجة من ثنـــايا المحاولات والمحاورات التى تثير الفضول طوال السياق الروائى الحافل .

لكن ثمة قضيتين أخريين اجل شأنا واقرب الى العموم والشمول ان يكن « جون شتاينبك » قد عرض لهما فى ايجاز فان لهما من الخطر ما يضعهما فى قمة القضايا العالمية الـكبرى . احداهما هى قضية الحرب والسلام وصلتهما الوثيقة بأســـلحة الدمار النووى الذى يهدد البشرية كلها بالفناء ما لم يتغير اسلوب معالجة القضية تغييرا جذريا له فيه راى طريف ان يكن اقرب الى الغيبيات فانه قمين ان يمسك على البشرية ســـلاحها وأمنها ويدرأ عنها مهالك الدمار والفناء . وثانيتهما هى قضية الفساد السياسى الذى تعانى منه مجتمعات دوليةكثيرة ولـكنها اكثراستشراء فى المجتمع الأمريكى. ولعل أخطر ما فى هذه القضية هو اتخاذها سلاحا ماضيا فى معارك المنافسات الانتخابية لا بهدف الاصلاح ولكن لأغراض القضاء على الخصوم والتخلص من المنافسين . ولعل ما نقرأه من هـــذا فى تقلبات المعارك السياسية الأمريكية هو، تأكيد لما ازجاه المؤلف من اخطار هذه القضية على الحياة السياسية وتحذير من الانسياق فى تيارها الجارف الذى اضحى فى العهود الأخيرة يهدد بتقويض استقرار مجتمع السياسة الأمريكية وغيره من المجتمعات المماثلة ، وهى قضية ذات ارتبـــاط ملحوظ بالاستقرار والأمن العالميين .

وبعد ، فلا ينبغى أن نقول ان هذه القضايا وامثالها قد ساقها المؤلف عامدا وأبرزها سافرة وذات كيانات مستقلة عن القصـــة ذاتها ، ولكنها البراعة القصصية التى تمزج القصة القوية والأحداث الروائية المحبوكة باللمحات الفكرية الثاقبة التى نستخلص مراميها من خلال السياق والتى يبرع فيها اساطين القصة العالميين من امثال « جون شتاينبك » . وفى هذا ما يسلك القصة بين شوامخ الآداب العالمية ويجعل الوقت الذى ينفق فى قراءتها معينا من الزاد الفكرى والامتاع الأدبى يضيفه القارىء الى رصيده المدخر .

محمود مسعود

الجزء الاول

الفصل الأول

ما أن اهلت بواكير هذا الصباح المشرق من شهر ابريل حتى استيقظت مارى هاولى ثم انثنت الى ناحية زوجها ، ولما رأته يهم بمعابثتها بادرته قائلة :

ــ الا تكف عن هذا الهذر يا ايثان ؟ أم ان المعاكسة اصبحت متأصلة فى طبعك ؟

ــ قولى ياحبيبة الروح ، هل تقبلينني زوجا ؟

ــ هل استيقظت فعلا ، أم انك لازلت مخدر الحواس ؟

ــ ان السنة كلها قد اجتمعت فى هذا اليوم ، واليوم كله قد اجتمع فى هذا الصباح البديع .

ــ اذن فقد استيقظت فعلا . هل تتذكر ان هذا يوم الجمعة الحزينة ، وعيد الفصح على الابواب ؟ وهل سيدعك مارولو تغلق محل البقالة فى الساعة الحادية عشرة صباحا ؟

ــ أن مارولو يا مهجتى رجل لا يتقيد بأى عرف ، والأرجح انه لن يظهر طول النهار . سوف اغلق المحل عند الظهر الى أن تنتهى المراسم المقدسة .

ــ يخيل الى انك لا تتكلم عنها بالاحترام الواجب ، وهذا شيء غير لطيف .

ــ هذا الأسلوب ورثته عن امى ، وهواسلوب القراصنة فىالكلام.

ــ انهم لم يكونوا قراصنة . انت نفسك قلت هــذا ــ كانوا صيادى حيتان ، وكانوا معتمدين من الكونجرس فى ذلك العهد .

ــ ان السفن الانجليزية التى كانوا يطلقون عليها النيران كانت تعدهم قراصنة .

ــ هذا خلط فى الكلام يا ايثان . ان كل الظروف تدعوك الى الفخر بنسبك. فاسرتك كان فيها المهاجرونالأوائل الذين استوطنوا اقليم نيوانجلند هذا ، وكان منهم ربابنة سفن صــيد الحيتان .

واجتماع هذا في اسرة واحدة يدعو الى الفخر حقا .
ـ وهل أجدادى العظام يمكن ان يشعروا بالفخر اذا عرفوا انهم انجبوا بائعا لعينا في محل بقالة لعين في بلده كانوا من اكابرها ،
ـ انت لست هكذا . انت اقرب الى مدير للمحـــل ، فانك تمسك الحسابات، وتورد النقود للبنك، وتباشرطلب السلع للمحل.
ـ صـحيح . وانا ايضـا اكنس المحل وانقل القمامة واداهن مارولو ، ولو كنت قطة لأكلت ايضا فئران مارولو .
فطوقته مارى بذراعيها قائلة :
ـ دع عنك هذا الكلام السخيف ، ارجوك الا تذكر هـذا القذف ونحن في يوم « الجمعة الحزينة» ، انني احبك . وكلامك انساني ان اكلمك عن « الأولاد » .
ـ هل دخلوا السجن ؟
ـ اراك عدت الى السخف من جديد . وربما كان الأفضل أن يخبروك هم .
ـ ولم لا تخبرينني انت ؟
ـ ان مارجى الملقبة « بالصيادة الشابة » سوف تقرأ لى الطالع مرة اخرى اليوم .
ـ من هى مارجى هذه ، التى يتهافت عليها العشاق و ... ؟
ـ انت تعرف انني لست غيورة ، وان كانوا يقولون انه عندما يتظاهر الرجل بالاستخفاف بفتاة جميلة ...
ـ تلك المخلوقة فتاة ؟ انها تزوجت مرتين !
ـ ان ثانى الزوجين توفى .
ـ اريد ان افطر . هل تصدقين تلك الخزعبلات ؟
ـ لابأس . ان مارجى قرأت الطالع الأخى ، قالت ان شخصا قريبا وعزيزا سوف ...
ـ ... ان شخصا قريبا منى وعزيزا على سوف ينال رفسة اذا لم يقم حالا باعداد الافطـار .
ـ سأذهب . بيض ؟
ـ اظن .
وفعلا لم يكد ايثان ينتقل الى المكان الصغير المخصص للطعام قرب النـافذة حتى وجد القهوة معدة الى جانب البيض والخبز المحمص . وفى اثناء الطعام دست في جيب صدره قائمة بالأصناف المطلوبة البيت قائلة :

ـ انها تبدو كثيرة ، لـكن لا تنس ان هذه عطلة عيد الفصح . « دستتا » بيض على الأخص . سيقوم الان وايلين بتلوينهما . يحسن ان تذهب الآن .

ـ حسنا يا زهرتي العاطرة ، لـكن الا يمكن ان أصعد اليهما واتحفهما « بعلقة » ؟

ـ انك تدللهما اكثرمن اللازم يا ايثان. الآن اذهبعلى بركة الله.

خرج ايثان الى اشراقة الصباح المونق بالخضرة واشعة الشمس الذهبية ، ولم يتمالك أن تلفت خلفه يستجلي مشهد البيت العتيق البديع ، بيت أبيه وأجداده ، الأبيض الطلاء والمشيد على هيئة سفينة تعلو مدخله تلك النافذة الدائرية الـكبيرة ، وتحف بهحديقة يانعة الخضرة ، حفلت بالزنابق التى يرجع عهدها الى مائة عام .. ثم تابع سيره الى شارع « ايلم » حيث التقى فى منتصفه بصراف البنك جوموروفى خارجا من دار أسرة فيليبس التي تحولت الآن الى « بنسيون » ، وما ان رآه مورفى حتى حياه قائلا :

ـ أهلا يامستر هاولي ، كنت فى طريقى اليك .

كان جوموروفى اشبه فى ملامحه بحصان ، خصوصا اذا ابتسم وبدت أسنانه الـكبيرة المربعة ، ولـكنه كان محبوبا فى بلدة « « نيو بايتاون » هذه رغم انه قدم اليها منذ أعوام قلائل ، وكان محاسبا ماهرا وصرافا متمرسا ، حتى ان مستر بيكر رئيس البنك منحه ثقته الـكاملة الى حد انه وكل اليه معظم العمل فى بنك « فيرست ناشونال » ، وكان مورفى يعرف كل شخص معرفة وثيقة ، ولكنه لم يكن ينادى أحدا باسمه المجرد ، فهو ينادى ايثان باسم مستر هاولي ، ومارجي « الصيادة الشابة » باسم مسز «يونج هانت» ، على الرغم من الهمس الدائر بأنه على علاقة سرية بها ، ولم تكن له أسرة ولا أقارب ، وكان يقطن وحيدا فى غرفتين بدار أسرة فيليب ، ويتناول أكثر وجباته فى مطعم فورماستر ، وكان حريصا على نظافته متأنقا فى ملبسه .

وسار الاثنان معا متجهين الى شارع « هاى » ، وفى الطريق قال مورفى :

ـ كنت أود ان اسألك : هل لك قرابة بأمير البحر هاولى ؟

فقال ايثان : تقصد ادميرال هالزى ؟ ان اسرتنا كان بها ربابنة كثيرون ، لـكن لم يكن بها أمراء بحر .

ـ سمعت ان جدك الأكبر كان ربانا لسفينة صيد الحيتان ،

وربما كان هذا سبب خلطي بينه وبين امير البحر .

ــ ان بلدة مثل بلدتنا لابد أن توجد بها اساطير ، مثل الاسطورة القائلة بأن بعض العاملين مع أبي كانوا يقومون بأعمال القرصنة ، يا له من يوم رائع لم أر أبدع منه في حياتي !.. لماذا كنت تريدني؟

ــ آه . نعم . اظن انك ستغلق المحل فيما بين الثانية عشرة والثالثة ، فهلا جهزت لي بعض الشطائر حوالى الحادية عشرة والنصف ؟ سوف أجيء اليك وآخذها ، مع زجاجة لبن .

ــ الن يغلق البنك أيضا ؟

ــ سوف يغلق ، لكنني سأبقى به لانجاز الحسابات المتاخرة ، ان عطلة كبيرة كهذه سوف تجعل كل النـــاس ، حتى كلابهم ، يتهافتون على سحب وصرف الشيكات .

ــ لم أكن اظن هذا .

ــ بل هو الواقع ، سلسلة اعياد : عيد الفصح ، وعيد الرابع من يوليو ، وعيـــد العمل ، كلها عطلات طويلة ، ولو أردت السطو على بنك لفعلت هذا قبل واحدة من هـــذه العطـــلات الطويلة ، فالاموال المعدة للصرف تكون كثيرة ، جاهزة ، تنتظر .

ــ الم تتعرض ياجو مرة لحادث سطو ؟

ــ لا ،لكن لي صديق تعرض للسطو مرتين .

ــ وماذا قال في هذا ؟

ــ قال انه استسلم للفزع ، كل ما فعله انه انطرح على الارض اذعانا للتهديد وتركهم يسطون ، وقال ايضا ان أموال البنك مؤمن عليها أكثر من التأمين على حياته !

ــ سأحضر لك الشطائر عندما اغلق المحل ، عن طريق البـــاب الخلفي ، ما هي الأصناف التي تريدها ؟

ــ لاتتعب نفسك يامستر هاولي ، سأجيء اليك عبر الحارة ، أريد لحما مقددا وجبنا وبعض الخس و « المايونيز » ، ثم زجاجة لبن و « كوكا » لمـــا بعد .

وأردف مورفي بعد برهة :

ــ كيف حال مارولو ، الذي هو وحده عصابة « مافيا » ؟

ــ على مايرام فيما اظن .

ــ انه شخصية عجيبة ، الناس يعرفون براعته في البيع والشراء واقتناص الصفقات الرابحة ، وان كانوا لايعرفون مبلغ ثروته ، اما

انا فلست فى حل من الكلام فى هذا ، لان صراف البنك مفروض فيه الكتمان .

ـ وانا من رايك ، انك لم تكمل القضيـــة ، هل قبضـــوا على اللصوص الذين سطوا على صديقك فى البنك ؟

ـ طبعا ، قبضوا عليهم كالفئران ، من حسن الحظ ان اللصوص ليسوا اذكياء ، لو ان جومورفى الف كتابا عنوانه « كيف تسطو على بنك » ، لما تعبت الشرطة فى القبض على اللصوص .

فضحك ايثان قائلا :

ـ اشرح لى هذا باختصار ، فاننى اريد ان افتح المحل .

فراح جو يقول :

ـ سيداتى وسادتى : اننى اقف امامكم هذا الصباح لكى ... لـكن لا ... الافضل ان اقول : كيف يمكن القبض على لصوص البنوك ؟ اولا ـ بالبحث عن السوابق ، ثانيا ـ تشاجراللصوص على المسروقات وايقاع احدهم بشركائه ، ثالثا ـ فتش عن المراة ، فلابد أن يبعثر اللصوص الاموال المسروقة على النساء ، رابعا ـ رصد من ينفقون بسخاء واستخلاص اللصوص بينهم .

ـ حسنا يا استاذ ، وما هو اسلوبك فى السطو ؟

ـ فى غاية البساطة ، لـكل نقطة عكسها ، لا تحاول ابدا السطو على بنك اذا كنت من ارباب السوابق ، لايـــكن لك شركاء ، قم بالعملية وحدك ، ولا تقل شيئا لاى انسان ، انس النساء تماما ، لا تنفق الاموال المسروقة ، وضعها فى مكان مأمون ولو لسنوات ، وعندما تحتاج الى المال خذ ما هو ضرورى فقط واحتفظ بالباقى فى حرز حريز .

ـ وماذا يكون الحال اذا تعرف احد على السارق ؟

ـ اذا حجب وجهه ولم يتكلم ، فمن الذى سيعرفه ؟

فوضع ايثان يده فى جيبه ثم اخرجها خاوية وهو يقول ضاحكا :

ـ ساكون مدينا لك بثمن هذه المحاضرة القيمة ياعبقرى البنوك!

فقال جو مورفى :

ـ سأنال الثمن شطائر !

وفى هذه اللحظة اجتاز الاثنان شـــارع « هاى » وانعطفا الى الحارة الفاصلة بين البابين الخلفيين للبنك ومحل البقالة ، فدلف جو مورفى الى باب البنك وفتح ايثان باب محل « بقالة وفواكه مارولو » ، وتوقف برهة فى مخزن المحل الذى تكدست فوقارففه

المتصاعدة الى السقف بصناديق المعلبات من فاكهة وخضر وأسماك ولحوم محفوظة وأصناف جبن شتى ، واكياس الدقيق والبقول المجففة ، وما لبث أن فتح باب الحارة مرة ثانية واخرج أوعية القمامة المغطاة ، وعندما تحفز قط رابض للوثوب الى الداخل طرده ايثان منتهرا ، ثم عاد الى داخل المخزن واغلق الباب .

واجتاز ايثان الباب الفاصل بين المخزن ومحل البيع ذى النوافذ الزجاجية الكبيرة المظللة بالستائر المعدنية ، وكان هو ايضا مملوءا بالأرفف المتطاولة حتى السقف والتى تراصت فيها بأتم تنسيق وعناية المعلبات المعدنية ، والزجاجية التى لا حصر لها ، والتى كان يسميها « مكتبة المعدة » تفكها ، وحين أضاء الثلاجة الفولاذية الكبيرة اللامعة غمر الضياء الباهر ما بها من شرائح اللحوم والجبن والسجق والأسماك حتى كان لها مشهد أخاذ لم يتمالك ايثان نفسه من استجلائه والاعجاب به .

وانثنى ايثان الى درج فى المنصة الطويلة قرب مسجلة النقود واخرج « مريلة » طويلة مخططة شدها الى صدره ووسطه وربط عقدتها من الخلف ، ثم رفع يده باسطا كفه الى الأمام ونادى قائلا :

ـ صباح جميل يا مخللات منها اللعاب يسيل ، ويا معلبات فاكهة وخضر ولحم اليها تهفو المعدة وتميل !

ثم رفع الستائر الخضراء عن النوافذ الكبيرة وهو يهتف : ادخل أيها النهار المشرق ... وبعدها فتح الأبواب الأمامية قائلا : ادخلى يادنيا !

وانثنى على الاثر الى مكان المغسل الصغير فجاء بمكنسة لكنس الرصيف .

وفى هذه اللحظات اقبل مستر بيكر رئيس بنك « فيرست ناشونال » ، فأمسك ايثان عن الكنس وحياه قائلا :

ـ صباح الخير يامستر بيكر .

ـ صباح الخير يا ايثان ، هذا صباح جميل .

ـ جميل فعلا يامستر بيكر ، هذه بشائر الربيع .

فقال مستر بيكر فى وقفة يسيرة :

ـ كنت أريد أن أكلمك يا ايثان عن ذلك المال الذى آل الى زوجتك بموجب وصية اخيها ـ الذى زاد عن خمسة آلاف دولار ، أليس كذلك ؟

ـ ستة آلاف وخمسمائة دولار ، بعد خصم الضرائب .

ـ لاباس ، المبلغ مودع فى البنك ، مجرد ايداع ، ينبغىاستثماره اود ان اكلمك فى هذه المسألة ، ان هذا المال يجب أن يعمل .
ـ ان مبلغا كهذا لايمكن أن يكون له عمل كثير ياسيدى ، هو مجرد احتياط فى حالات الطوارىء .
ـ انا لست ممن يؤمنون بالمال العاطل يا ايثان .
ـ المسألة ياسيدىهىان هذا المبلغ بمثابة تأمين مؤقت طارىء ، فى حالة حدوث شىء لى .
ـ اذن يجب أن تستخدم جانبا منه للتأمين على حياتك .
ـ هناك ناحية اخرى للمسألة ياسيدى . ان والدة مارى لاتزال على قيد الحياة ، وربما يمتد بها العمر .
ـ مفهوم . ان كبار السن يمكن أن يكونوا عبئا .
ـ ثم انني لو استثمرت مال مارى ياسيدى ، فقد امنى بالخسارة ، كما حدث عندما خسرت مالى ، وكما حدث عندما خسر ابى ثروته .
ـ انا اعرف انك تعرضت لهذا فعلا ، لكن الزمن تغير ، وهناك فرص كثيرة تتفتح باستمرار .
ـ انني جربت فرصتى يامستر بيكر ، لا تنسى اننى كنت املك هذا المحل بعد الحرب العالمية الأخيرة مباشرة ، وقد اضطررت الى بيع عقاراتى الموروثة كله بالسلع .
ـ أعرف هذا يا ايثان ، فأنا صاحب البنك الذى تتعامل معه ، واعرف طبيعة اعمالك كما يعرف الطبيب نبضك .
ـ صحيح ياسيدى ، وفى أقل من عامين أوشكت على الافلاس التام ، وكان لابد ان ابيع كل شىء باستثناء بيتى لكى أسدد ديونى .
ـ لايمكن أن يقع كل اللوم عليك بسبب هذا ، فقد كنت وقتها حديث العهد بالتسريح من الجيش ، ولم تكن لك خبرة فى مجال الأعمال ، ثم لا تنس ان موجة « الكساد الكبير » قد مستك أيضا ، انها اغرقت كثيرين من كبار رجال الأعمال .
ـ بل انها غمرتنى ياسيدى تماما ، فهذه اول مرة فى التاريخ يعمل فيها واحد من اسرة هاولى بائعا فى محل بقالة .
ـ هذا هو الذى لا افهمه يا ايثان ، كل انسان معرض للافلاس ، اما الذى لا افهمه فهو لماذا تظل مفلسا ، وانت المتعلم سليل الأسرة الكريمة ، لايمكن أن تظل هكذا على الدوام ، اللهم الا اذا كنت قد فترت عزيمتك ، ودب الخور الى قلبك ، ما الذى دهاك

يا ايثان ، وجعلك تستسلم لليأس ؟
فراح ايثان يقول بانفعال :
ـ الانسان لايستسلم لليأس بسهولة ، وبعبارة أخرى هو قادر على المقاومة والتصدى للصعاب ، ولـكن ما يقتل الهمة هوالتآكل ، ان عوامل التخوف والفزع تتسلل الى نفسه وئيدا ، وانا فى فزع دائم ، فقد تقطع شركة الاضاءة التيار الـكهربائى فتمسى أسرتى فى ظـــلام وبرد ، وزوجتى بحاجة الى الملابس ، واطفـــالى يطلبون الاحذية ـ والتسلية ، وماذا لو انهم لم ينالوا حظهم من التعليم ؟ ثم هناك فواتير المطلوبات الشهرية واجور الطبيب وعلاج الأسنان واللوز ، والى جانب هذا لنفرض اننى مرضت وقعدت عن كنس هذا الرصيف الملعون ؟ طبعا لا تفهم هذا ، العملية كلها تنخر ببطء فى همتى على مدار الأيام والليالى ، ليس فى قدرتى أن افـكر فى ابعد من قسط الثلاجة للشهر القادم ، اننى اكره عملى وانا فى فزع دائم من فقده ، كيف يمكن أن تفهم هذا ؟
ـ مع ذلك انت فى حاجة الى صدمة تشحذ همتك . ان اهلنـــا كانوا رجالا ذوى جسارة واقدام . وانت تعرف هذا. انهم لم يتركوا انفسهم تتآكل حتى الموت . والزمن الآن فى تغير مستمر . وهناك فرص لم يكن اسلافنا يحلمون بمثلها . وهـــذة الفرص يقتنصها الاجانب عن بلادنا . ان الاجانب يأخذون عندنا الزمام . استيقظ ياايثان !
ـ وماذا عن الثلاجة ؟
ـ دعها تذهب اذا لم يكن من هذا بد .
ـ وماذا عن مارى والاولاد ؟
ـ اتسهم الى حين . انهم سوف يحبونك اكثر اذاانسلقت خارجا من جحرك .انك لاتساعدهم بدوام قلقك عليهم وانشغالك بأمرهم.
ـ ومال مارى ؟
ـ اخسره اذا لم يكن من هـــذا بد ، لـكن جازف به ، ومع التدقيق وحسن المشورة لن تتعرض لضياعه ، ان المجازفة لا تعنى الخسارة ، ان قومنا كانوا دائما من أهل المجازفة المحسوبة ولم يتعرضوا لخسران ، سوف أهزك يا ايثان من الأعماق ، انك تخيب بروحك هـــذه ذكرى الـكابتن هاولى ، انت مدين لذكراه بشىء تعمله . يا للعجب ! انه وأبى كانا يمتلـكان السفينة « بيل ـ آدير » معا ، وكانت من أمتن وأجمل سفن صيـــد الحيتان ،

انفض عنك عفار الخمول واليأس يا ايثان ، واعمل شيئا لذكرى « بيل آدبر » .

ـ ان « بيل ـ آدبر » احترقت حتى خط الماء ياسيدى .

ـ أعرف هذا ، لـكن هل ثنى هذا من عزمنا ؟ لا بأى حال .

ـ كانت السفينة مؤمنا عليها .

ـ بالطبع كانت كذلك .

ـ أما أنا فلم يكن مؤمنا على بشىء ، ولم أستطع سوى انقـاذ هذا البيت لا أكثر .

ـ لابد لك أن تنسى هذا ، انك تحزن نفسك بشىء فات وانقضى، لابد أن تستجمع بعض الشجاعة ، والجرأة ، ولهذا السبب قلت ان عليك ان تستثمر مال مارى ، انتى أحاول مـساعدتك يا ايثان.

ـ شكرا لك ياسيدى .

ـ سوف ننزع عنك هذه « المريلة» ، انت مدين بهذا للـكابتن هاولى ، انه ما كان يصدق شيئا كهذا .

ـ أظن ذلك ياسيدى .

ـ هذا هو الـكلام المطلوب ، سوف ننزع عنك هذه «المريلة» .

ـ لو لم تكن مارى والأولاد ...

ـ انسهم كما قلت لك من أجل صـالحهم ، هنـاك مشروعات هامة سوف تتم فى بلدتنا « نيو بايتاون » هذه ، يمكنك أن تكون جزءا منها .

ـ شكرا لك ياسيدى .

ـ كل ما أطلب هو أن تدع لى فرصة للتفكير فى الأمر .

ـ قال لى مستر مورفى انه سـوف يواصل العمل عندما تغلق البنك وقت الظهر ، وسوف أجهز له بعض الشطائر ، هل تحب ان أجهز لك مثلها ؟

ـ لا شكرا ، ان مورفى رجل كفء ، ولهذا فاننى اترك له كل العمل ، هناك أرض عقـارية أحب ان ابحث امرها فى مكتب السجلات العقارية ، وربما يكون لك نصيب فيها ، سوف نتكلم فى هذا قريبا ، الى اللقاء .

وأسرع باجتياز الحارة ودلف الى باب البنك الأمامى وايشـان ينظر فى اثره مبتسما .

وأسرع باتمام الـكنس اذ بدأ الناس ينتشرون ، وأن لم يحضر

اليه سوى قليل من « الزبائن » معظمهم من الاطفال لشراء خبز او لبن او بن .

ثم اقبلت مارجى الملقبة بالصـــيادة الشـــابة ، وكانت مرتدية « سويتر » ابرز صدرها و « جونلة » محكمة مشـــدودة حول خاصرتيها ، وان كانت عيناها العسليتان هما اللتان رأى فيهما ايثان ما لايمكن أن تراه زوجته مما لايكون ماثلا فى حضور الزوجات ، كانت صيادة حقا ، وكانت اقرب الى حيوان مفترس ضار .

ثم كانت نبراتها الناعمة المتحفزة هى التى اكملت الصورة .

قالت له : صباح الخير يا «ايث» ، ياله من يوم بديع للرحلات الخلوية !

ــ صباح الخير ، اراهن انك محتاجة الى بن .

ــ خانك الذكاء هذه المرة ، جئت لأقول لك ان مندوب محلات « ب . ب . د » سوف يحضر لمقابلتك .

ــ اننا نشترى سلعنا من محلات « وايلاندز » .

ــ على كل حال قد أبلغتك عن مستر « باجارز » هذا . هل يمكن ان تعطينى كوب ماء ؟ سأتناول قرصين من الأقراص الفوارة.

فذهب ايثان الى المخزن وجاء بكوب المـاء ، فوضعت فيه ثلاثة اقراص فوارة وانتظرت حتى ذابت ثم شربتها ، فقال لها :

ــ سمعت انك سوف تقرئين الطالع لمـارى اليوم .

ــ يا الهى ! اننى نسيت ، بامكانى اذا مارست هـــذه المهنـــة ان أجمع ثروة .

ــ ان مارى تعشق هذه العملية ، هل انت بارعة فيها ؟

ــ لابراعة هناك ، ما عليك الا ان تدع الناس ــ خصوصـــا النسـاء ــ يتكلمون عن انفسهم ، ثم تكرر لهم الـكلام ، فيتوهمون انك تعرف الغيب ، أما الرجال فأمرهم يحيرنى ، لمـــاذا لا تعلمنى احوال الرجال يا ايثان ؟

ــ انت تعرفين عنهم ما فيه الـكفاية ة وربما أكثر من الكفاية .

ــ آه ، اراك تسرف فى ظنونك .

ــ هل تحبين أن ابدأ الآن ؟

ــ ربما يكون الأفضل مساء .

ــ حسنا ، سنكون جماعة ، مارى وانت والاولاد ، وموضـــوع التعليم هو الرجال : نقط الضعف فيهم ، ومواطن الغباوة ، وكيفية تسخيرهم واستخدامهم .

فتجاهلت مارجي لهجته قائلة :
ـ الا تشتغل قط مساء ـ حسابات آخر الشهر مثلا ؟
ـ بالطبع ، انني آخذ الأوراق الى المنزل .
فابتسمت قائلة :
ـ هل تعرف ماسوف افعله؟ سوف أقرأ طالعا هائلا هذا الصباح، وسوف تكون شخصا عظيم الشأن ، وكل شيء تلمسه سوف يتحول الى ذهب ـ سوف تكون زعيما بين الرجال .
وتحولت مسرعة الى الباب وأضافت باسمة :
ـ انني أتحداك ان تكذب تنبؤاتي ... الى اللقاء يا بطل !
ولكنه لم يفته أن يستشف في رنين عقبي حذائها على الرصيف علائم الغضب .
وما ان حلت الساعة العاشرة حتى تغير كل شيء ، فقد فتحت ابواب البنك الزجاجيــة وتدفق النــاس يغترفون النقــود ويجيئون بها الى محل مارو للو لشراء مختلف الأطعمة ولوازم عيد الفصح. وظل ايثان غارقا في العمل حتى دقت ساعة المطافيء في برج البلدية معلنــة الظهر ، فأغلق أبواب المحل وانزل الستائر الخضراء حتى شملت المكان عتمة لم يبددها سوى ضوء الثلاجة الأزرق القاتم.
وما كاد يفرغ من اعداد الشطائر التي أوصى بها جومورفي صراف البنك حتى سمع صرير مفتاح في قفل الباب الأمامي ، ودخــل مارو للو بهيكله الضخم كهيكل الدب وفي صدره المنتفخ حتى بدت ذراعاه قصيرتين بالنسبة الى جسده ، وكانت قبعته مائلة عن رأسه الى الخلف حتى بدا شعره المنتصب الأشيب مثل قلنسوة ، وكانت عيناه نديتين ناعستين تشفان عن المكر ، وبدت أســنانه الأمامية المكسوة بالذهب ذات بريق في الضوء المحدود ، وقال وقد شبك ابهاميه السمينتين في طيات بنطلونه تحت بطنه ردا على تحية ايثان :
ـ حسنا يافتى ، أراك أسرعت باغلاق المحل .
ـ البلدة كلها اغلقت ، حسبت انك ذهبت لحضور القداس . هل هناك ما يمكن ان أقوم به ؟
فرفع الرجل ذراعيه القصيرتين السمينتين وحركهما قائلا :
ـ زاد الألم في ذراعي يافتى ، هو الروماتزم .
ـ الا يمكن عمل شيء ؟
ـ انني أفعل كل شيء ـ « كمادات » ساخنة ، زيت القرش ، أقراص الدواء ـ لكن الألم لايزال موجودا ، احسنت باغلاق المحل،

هذه فرصة للـكلام بيني وبينك يافتى .
ــ هل هناك اى تقصير ؟
ــ تقصير ؟ واين يكون التقصير ؟
ــ حسنا ، اذا انتظرت دقيقة فانني ساذهب بهذه الشطائر الى البنك ، حيث طلبها مستر مورفى .
ــ انت فتى همام ، انك تقوم بالخدمة ايضا ، وهذا شيء جميل.
وعندما رجع ايثان بعد تسليم الشطائر وجد مارولو يحدق فى وعاء للقمامة ، وما لبث ان تناول بعض اوراق الخرشوف الملقـــاة فى الوعاء قائلا :
ــ انك تنزع قشورا كثيرة .
ــ الغرض جعل الخرشوف يبدو جذابا .
ــ الخرشوف يباع بالوزن ، وانت بهذا ترمي النقود فى القمامة. انني اعرف يونانيا حاذقا له عشرون مطعما يقول ان سر المهنة فى مراقبة اوعية القمامة ، ان ما تلقيه كنفاية تخسره كمبيعات ، انه شخص حاذق فعلا .
فقال ايثان : مضبوط يامستر مارولو .
ــ وهل ترش الخضر بالمـــاء كما قلت لك ؟
ــ بالتأكيد .
فرفع صاحب المحل خسة قائلا :
ــ هـــــــــذه تبدو جافة .
ــ يا مغيث يا مارولو ! لايمكن ان تتشبع بالماء اكثر من هذا ، المـــاء يكاد يبلغ ثلث وزنها !
ــ الماء يجعلها طرية ، طازجة ، هل تظن انني اجهل اصـــول العملية ؟ انني بدات بعربة يد ، واكتسبت الخبرة ، لابد ان تتعلم اسرار المهنة يافتى ، والا افلست ،والآن ما حكاية اللحوم ؟ اراك تشترى باسعار عالية .
ــ اننا نعلن عن تقديم لحوم ممتازة .
ــ وارى ايضا « بواقى » لحوم مستغنى عنها فى الثلاجة .
ــ هى شحوم وزوائد .
ــ لاباس بهذا اذا تم الوزن للجمهور قبل قطع الشحوم والزوائد. لابد ان تتعلم يافتى .
شعر ايثان بالغضب يتملـــكه فجاة ، حتى قال :
ــ انا لست نحاتا يا مارولو !

ــ المسالة مسالة عمل ، والعمل الناجح هو الذى يربح ، هل تظن ان مستر بيكر يوزع اموال البنك مجانا ؟

وعندئذ غلت مراجل الغضب فى صــدر ايثان حتى لم يتمالك ان راح يقول صائحا :

ــ اسمع باسيدنا ، ان عائلة هاولى مقيمة هنا منذ اكثر من مائتى سنة ، وانت اجنبى ، ولا يمكن ان تفهم حياتنا ، وعلى مدار السنين كنا نتعايش مع مواطنينا ونخالقهم بالخلق الطيب ، والمعاملة الكريمة ، واذا كنت تظن ان قدومك من جزيرة صقلية يمكن ان يغير شيئا من هذا فانت واهم ، وان كنت تريد وظيفتى هنا فانا متنازل عنها منذ الآن ، ولا تقل لى «يافتى» ، والا لطمت انفك !

فقال ماروللو وقد عادت ثناياه الذهبية الى الابتسام :

ــ لاباس ، لاباس ، لا تفقد صوابك ، اننى احاول فقط ان افيدك بنصائحى ، انا لا اجيد الانجليزية كما يجب ، ولــكن يمكننى ان أقول ان هويتى يرجع تاريخها الى الفى أو ثلاثة آلاف سنة . ان اسم مارولو اسم عريق أصله من روما ، ما هى قيمة مائتى سنة بالنسبة لهذا ؟

ــ انت لست من اهل هذه البلاد .

ــ ومنذ مائتى سنة لم تكن انت من اهلها ايضا .

لم يلبث ايثان أن انحاز الى الهدوء وقد ذهب عنه الغضب ، فقال بلهجة أقل حدة :

ــ ما كان يصح ان تتكلم بلهجة الاسياد .

ــ المسألة مسألة عمل ، واننى أعلمك اسرار العمل ، ثم ان سنى ثمانية وستون عاما ، وزوجتى توفيت ، وآلام الروماتزم تحاصرنى، واذا لم تفهم أسرار العمل تعرضت للافلاس .

ــ لا لزوم لتوبيخى لاننى افلست مرة .

ــ انت مخطىء ، اننى فقط احاول ان أعلمك أصول العمل الناجح حتى لا تفلس مرة أخرى .

فقال ايثان وقد عاد الى الابتسام :

ــ حسنا، وما الذى تريد أن تعلمنى من أصول العمل مما لا أعرفه؟

ــ العمل يعنى المال ، والمــال لايعرف المجاملة ، المــال لا يطلب الصداقة ولــكن يطلب المزيد .

ــ هذا كلام فارغ يا مارولو ، اننى أعرف الكثيرين من الأصدقاء الطيبين ، وهم رجال اعمال شرفاء .

ـ هذا فقط بعيدا عن الممارسة الفعلية للأعمال ، والأيام وحدها سوف تكشف لك عن ذلك ، وعندما تكشف لك عنه سيكون ذلك بعد فوات الأوان ، انني أعلمك دروســا حقيقية كما لو كنت في مدرسة . الى اللقاء يافتى .

وثنى ماروللو ذراعيه وأسرع خارجا من الباب الأمامى وصفقه خلفه ، حتى شعر ايثان بوحدة ووحشة .

ولم يكد يفيق حتى سمع طرقا حادا على الباب الأمامى، فأزاح الستار جانبا وقال .

ـ المحل مغلق حتى الساعة الثالثة .

ولـكن الغريب دخل ، كان شابا مليئا فارعا أنيق الملابس مصقول الشعر زئبقى النظرات بادى البشاشة ، وقال من فوره :

ـ آسف لازعاجك ، كان لابد لى من مقــابلتك على انفراد ، حسبت ان الرجل العجوز لن يخرج أبدا .

ـ ماروللو ؟

ـ نعم ، كنت واقفا عند الشارع انتظر ، انني قابلت صديقا لك فى الليلة الفائتة ، مسز يونج هانت ، مارجى .

ـ آه !

ـ انت شاب لطيف ، انها امتدحتك كثيرا ، وهــذا ماجعلنى أعتقــد ... اســمى بيجارز ، وانا المندوب المتجول لشركة « ب . ب . د . » للمواد الغذائية .

ـ اننا نتعامل مع شركة « وايلاندز » .

ـ أعرف هذا ، وهو سبب حضورى الى هنا ، نحن فى هــذه المنطقة منذ مدة قريبة ، ونريد توسيع معاملاتنا ، ولابد أن نقدم بعض التنازلات لـكى نتمكن من تثبيت اقدامنا ، وسوف تستفيد اذا انتهزت هذه الفرصة .

ـ عليك أن تقابل ماروللو .

فقال الرجل بصوت ودى خفيض :

ـ انت الذى تباشر طلبات الشراء ؟

ـ نعم . ان ماروللو مريض بالروماتزم ، وفضلا عن ذلك فله مصالح أخرى .

ـ المهم انك انت الذى يباشر طلبات الشراء ، بامكانى منحك خصم ٥ فى المــائة .

ـ ماروللو قد يقبل هذا اذا كانت البضاعة من نفس الأصناف.

ـ انت لم تفهمني . لا اريد مارولو . ان هذه الـ ٥ فى المـائة ستكون نقدا ـ لاشيكات ، ولا سجلات ، ولا متاعب مع رجـال الضرائب ، مجرد بنكنوت جديد من يدى الى يدك ومن يدك الي جيبك .
ـ حسنا ، وماذا اذا أخذت الـ ٥ فى المائة وحولتها الي مارولو؟
ـ اظنك لا تعرف هؤلاء الناس كما اعرفهم . اذا حولت اليه القيمة ، فسوف يتساءل فى نفسه عن البقية التىحجزتها لنفسك. هذا شعور طبيعى .
فقال ايثان بصوت خفيض :
ـ هل تريد منى أن اغش الرجل الذى اعمل عنده ؟
ـ واين الغش هنا ؟ انه لن يخسر شيئا ، وسوف تجنى انت ربحا ، كل انسان له حق فى أن يجنى ربحا ، فكر جيدا يابنى . فكر ان كان يمكنك تحويل طلبات الشراء الى جانبنا . سوف اعود لزيارتك بعد عودتى الى المنطقة . اننى اقوم بهـذه الدورة كل اسبوعين . هاك بطاقتى .
ظلت يد ايثان الىجانبه. فوضع بيجارزالبطاقة فوق الثلاجةقائلا:
ـ واليك تذكارا صغيرا نقدمه لأصدقائنا الجدد .
واخرج من جيبه محفظة جلدية انيقة ووضعها الى جانب البطاقة قائلا :
ـ هدية لطيفة تنفع لرخصة القيادة ، والبطاقات .
لم يرد ايثان ، فمضى بيجارز يقول :
ـ سوف أعود بعد أسبوعين . عندى موعد مع مارجى . فكر جيدا . انت شاب ذكى . سأذهب الآن .
وفجاة اقترب من ايثان وهمس فى اذنه :
ـ لا تكن أبله . كل انسان يفعل هذا .
وخرج مسرعا واغلق الباب خلفه بهدوء .
وساد سكون لم يتخلله سوى صوت محرك الثلاجة . ولم يلبث ايثان أن تلفت الى « شهوده » المتراصة على الأرفف من مختلف المعلبات قائلا :
ـ كنت احسبكم اصدقائي ! لم ترتفع يد بينكم للدفاع عنى !
واستدار على صوت طرق متواصل على باب الحارة ، فتقدم اليه على عجل وهو يغمغم لنفسه :
ـ « زبائن » اكثر مما لو كان المحل مفتـوحا .

دخل عليه جو مورفى ممسكا بحلقه قائلا :
ــ باللهعليك الا ماأغثتنى بزجاجةكوكا ، انني اكاد اموت عطشا. لماذا هذا الاظلام ؟ أم ان نظرى مسه الضعف ؟
ــ انني انزلت الستائر للتخلص من رجال البنوك العطشى !
وقاده عائدا الى الثلاجة حيث أخرج زجاجتين مثلجتين جدا قائلا :
ــ أظن انني سآخذ واحدة لنفسي .
واستند جو مورفى الى الثلاجة ولم يتكلم الا بعد أن افرغ نصف الزجاجة فى جوفه ، وبعدها هتف قائلا :
ــ ما هذا ؟ من أين لك هذه المحفظة الثمينة ؟
ــ هي هدية من مندوب شركة « ب. ب. د. » للمواد الغذائية. انه يحاول أن يضمنا الى نطاق عملائه .
ــ انها هدية ثمينة فى الواقع يابنى ، وارى حرفى اسمك منقوشين عليها بالذهب ايضا !..
ــ صحيح ؟
ــ تعنى انك لا تعرف ؟
ــ انه تركها منذ دقيقة لا اكثر .
فتح جو المحفظة ، واذا أصابعه تخرج منها ورقة بنكنوتجديدة فئة عشرين دولارا ، فقال :
ــ كنت أعرف انهم سوف « يزحفون » الى هذه المنطقة ، لكن لم اعرف انهم سيصلون « بالدبابات » . هذا تذكار يجعل الانسان يتذكر فعلا .
ــ هل كانت هذه الورقة فى المحفظة ؟ ..
ــ وهل تظن انني زرعتها فيها ؟
ــ جو . اريد أن أتكلم معك . ان ذلك الشخص عرض على ٥ فى المائة عن كل طلب شراء يكون من نصيبهم .
ــ مرحى ! اليسر والرخاء أخيرا ! يجب أن توزع الكوكا مجانا. هذا يومك !
ــ لعلك لا تقصد ان على أن آخذها ...
ــ ولم لا ، اذا كانوا لايضيفونها الى السعر ؟ من الخاسر ؟
ــ طلب مني الا اخبر مارولو والا ظن انني احصل على اكثر من هذه القيمة .

ـ سيظن ، هذا فعلا . ماذا دهاك ياهاولى ؟ هل جننت ؟ هل تفكر فى طرد هذه النعمة ؟
ـ اننى قاومت نفسى لئلا اقذف به الى الشارع .
ـ لاشك انك تهذى !
ـ قال لى ان كل انسان يفعل هـــذا .
ـ وليس كل انسان يمكنه الحصول على مثلهـــا . انت من المحظوظين .
ـ ليس هذا من الأمانة .
ـ وكيف لا ؟ من المضرور ؟ ليس هذا ضد القانون .
ـ تعنى انك كنت تأخذها ؟
ـ آخذها ؟ ! لو كنت مكانك لركعت مستجديا . فى مهنتى ارى جميع المنافذ مسدودة . كل خطوة تخطوها فى البنك معدودة ضد القــانون ـ اللهم الا اذا كنت رئيسا . ماذا اصابك يابنى ؟ لو كنت تأخذ الهدية من الفيو ماروللو لقلت لك ان هـــذا مخالف للاستقامة ، لكنك لا تفعل هذا . انك تؤدى لهم خـــدمة ، وهم يقدمون لك خدمة مماثلة ـ فى شكل ورقة خضراء جميلة !.. لاتكن أبله . لك زوجة واولاد تفكر فيهم . ان تربية الأولاد لن تـكون عملية رخيصة .
ـ ليتك تذهب عنى الآن .
فوضع جو مورفى الزجاجة على المنصة بعنف قائلا ببرود :
ـ مستر هاولى ـ لا ، مستر ايثان آلين هاولى . لو كنت تظن اننى يمكن أن افعل شيئا مخالفا للأمانة أو اقترح عليك شيئا كهذا فلتذهب الى الجحيم ! ..
وسار جو عائدا أدراجه . فقال ايثان :
ـ لم أقصد هذا . أقسم لك ان هذا لم يكن قصدى ياجو . المسألة هى اننى تلقيت اليوم أكثر من صدمة . هذا عيد شنيع !
ولكن جو مورفى انسحب من الباب الخلفى وجذبه خلفه بهدوء .
ولم يلبث ايثان ان رفع الستائر وفتح المحل من جديد ، لـكن المعاملات لم تكن كثيرة فى هذه الفترة ، وخلت الشوارع أو كادت من الناس ، وقبيل موعد الاغلاق لم يتردد عليه أحد . وبعد أن اغلق المحل وهم بالابتعاد تذكر قائمة الأصناف المطلوبة للمنزل ، فاضطر الى العودة وجمع المواد فى كيسين كبيرين واغلق المحل من جديد وقد خامرته رغبة لـكى يمم شطر خليج الميناء ويراقب الأمواج

الداكنة ويشم رائحة البحر ويتحدث الى طائر «نورس» يراه واقفا على عائمة ومنقاره فى الهواء ، متأثرا فى هذا بقصيدة كتبتها سيدة منذ عهد بعيد عن احاسيسها حيال هذا الطائر الفريد . بيد ان ثقل اكياس لوازم العيد ثناه عن رغبته تلك ، وهكذا سار متثاقلا فى شارع « هاى » ومنه الى شارع « ايلم » متجها الى بيت هاولى العتيق .

الفصل الثاني

تركت ماري الموقد واخذت من زوجها احد الكيسين الكبيرين قـــــائلة :
ـ عندي اخبار كثيرة لك . لا يمكنني الانتظـار .
فقبلها ، ولما احست بتوتر شفتيه قالت له :
ـ ماذا هناك ؟
ـ اشعر ببعض التعب .
ـ لكنك اغلقت المحل ثلاث ساعات .
ـ كانت عندي اعمال كثيرة .
ـ أرجو الا تكون مكتئبا .
ـ كان يوما فيه كآبة .
ـ بل كان يوما رائعا . انتظر الى ان تسمع مني .
ـ أين الأولاد ؟
ـ فوق مع الراديو . عندهم ايضا اخبـار لك .
ـ مشاكل ؟
ـ لمـاذا تقول ذلك ؟
ـ لا اعرف .
وفى هذه اللحظة هرع الان وايلين يهبطان السلالم متواليين واسرعا الى المطبخ يرحبان بعودته . وقال الصبى :
ـ بابا . عندك فى المحل علبة الحبوب التى لها غطاء على شكل قناع فار . اريد واحدة .
وقالت ايلين :
ـ اذا ارسلت غطاء العلبة مع عشرة سنتات فانك تحصل على جهاز التكلم البطنى مع الارشادات الخاصة به . اننا سمعنا هـذا الآن فى الراديو .
فقالت مارى لابنها :
ـ قل لابيك ما الذى ستفعله ؟
ـ اننا سنشترك فى مسابقة « احب امريكا » ، وجائزتها السفر

الى واشنطن ومقابلة الرئيس – مع الوالدين – الى جانب جوائز أخرى .

فقال ايثان :

– بديع . ما هي المسابقة ؟ ماذا يجب أن تفعل ؟

فهتفت ايلين قائلة :

– يجب كتابة موضوع عنوانه : « لماذا تحب امريكا » . وجميع الفائزين سوف يظهرون فى التليفزيون .

وقال الان :

– ثم رحلة واشنطن ، والفندق ، والملاهى ، ومقابلة الرئيس ، والألعاب النارية . ما رأيك فى هذا كله ؟

– وما رأيك فى أعمال المدرسة ؟

– سيكون هذا فى الصيف . ستعلن أسماء الفائزين فى عيد ٤ يوليو .

– فى هذه الحالة لا بأس ، هل تحبان أمريكا فعلا ، أم تحبان الجوائز ؟

فقالت مارى :

– آه يا بابا !.. لا تفسد عليهما هذه المتعة !

وقال آلان : قل لى يا بابا . أين يمكن ان نبحث عن هذا الموضوع ؟

– تبحثان عنه ؟ !

– نعم . هذا ما قاله لى بعض الأولاد ...

– ان جدكم الاكبر كانت عنده كتب عظيمة . وهى موجودة فى غرفة السطح .

– مثل ماذا ؟ ..

– مثل خطب لنكولن ، وكتب دانييل وبستر وهنرى كلاى . ثم هناك مارك توين ايضا . كل هذه الكتب والمراجع موجودة فى غرفة السطح .

– ربما أمكنك مساعدتنا فى كتابة الموضوع .

– فى هذه الحالة لن يكون الموضوع من الشائك .

– على كل حال لا تنس احضار علبة الحبوب ذات القناع .

– سأحاول .

– هل يمكن أن تذهب الى السينما ؟

فقالت مارى :

– ظننت انكما ستقومان بتلوين البيض لعيد الفصح . انني أغليه الآن . بامكانكم بعد الغداء أخذه الى الباب لتجفيفه فى الشمس يا ماما .

ـ هل يمكن يا ماما ان نصعد الى غرفة السطح ونرى الكتب؟
ـ اذا اطفأتم النور فيما بعد . فى المرة السابقة ظل النور مضاء لمدة اسبوع . انك انت الذى تركت النور هكذا يا ايثان .
وعندما ذهب الصبيان قالت مارى :
ـ الست مسرورا باشتراكهما فى المسابقة ؟
ـ بالتأكيد ، اذا فعلا كما يجب .
ـ اننى لا اطيق الانتظـــار لابلاغك ـ فان مارجى قرأت طالعى اليوم ثلاث مرات ، لأنها قالت انها لم تشهد من قبل شيئا كهذا ثلاث مرات !
ـ يا الهى ! اسمعى يا مارى . اريد ان احذرك .
ـ اسمعنى اولا . انها قرأت الاوراق وكانت كلها حولك . سوف تكون واحدا من اهم الرجال فى هذه البلدة . ولن يطول هـــذا ايضا . بل سيحدث عاجلا . كل ورقة قلبتها بينت نقودا ونقودا اكثر . سوف تـكون رجلا غنيا .
ـ دعينى احذرك ياحبيبتى .
ـ سوف تقوم بعملية استثمار .
ـ بماذا ؟
ـ حسنا . كنت افـكر فى المـال الذى ورثته عن اخى .
فهتف قائلا :
ـ لا . لايمكن ان امسه . هذا مالك . وسيظل مالك .
ـ ان مارجى لم تشر الى هذا . سوف تستثمر فى شهر يوليو ، وكل خطوة سوف تتلوها خطوة اخـــرى . ان مارجى قالت لى بالحرف الواحد : « ان حظك هو ايثان . سوف يصبح رجلا غنيا جدا ، بل وربما اهم رجل فى هذه البلدة » ...
ـ لعنة الله عليها ! ليس لها حق فى هذا .
ـ انها صديقة مخلصة . لا اريد ان نتخاصم على مسمع من الاولاد . ان مارجى هى افضـــل صـــديقة لى . انا اعرف انك لاتحبها . وفى ظنى انك غيور من اصدقائى . اننى عشت ساعات سعيدة بعد ظهر اليوم ، وانت تريد ان تفسدها على . ليس هذا شيئا لطيفا .
فقال ايثان :
ـ قد يكون ما فعلته مجرد خبث . انها امرأة بلا رجل ولاعمل .
فراحت مارى تقول بازدراء :

ـ تكلم عن الخبث دون أن تعرف حقيقة مارجي ولا الظروف التي تمر بها . هناك رجال في هذه البلدة يطاردونها طول الوقت . رجال لهم شأن ، رجال متزوجون ، يهمسون ويغرون !.. واحيانا لا تعرف مارجي الى اين تتجه هربا منهم . وهـذا هو سـبب حاجتها الي ، كصـديقة من بنات جنسـها . آه ، كم حدثتني بأشياء لا تخطر على البال ، عن رجال لا تصدق امرهم . بل ان بعضهم يتظاهر بأنهم لايحبونها علنـا ، ثم يتسللون الى بيتها او يتصلون بها تليفونيا للاقائهم . رجال منافقون ، يدعون الى الفضيلة والأخلاق ثم يفعلون هذا . وبعد ذلك تكلمني عن الخبث !

ـ هل ذكرت لك من هم ؟

ـ لا . وهذا وحده دليل ضدهم . ان مارجي لا تريد أن تسيء الى أحد حتى ولو اساءوا اليها . لـكنها قالت أن بينهم واحـدا لايمكن أن أعتقد فيه هذا . قالت ان شعر رأسي قـد يشيب اذا عرفت بأمره .

فتنفس ايثان من اعماق رئتيه ، بينما قالت ماري :

ـ ترى من يمكن ان يكون ؟ ان طريقة كلامها عنه جعلتني اعتقد كما لو كان شخصا نعرفه تماما ولا يمكن ان نصدق امره .

فقال ايثان بصوت خافت :

ـ أظن انني أعرف .

ـ انت تعرف ؟ من هو ؟

ـ أنا .

ففرت فاها ، وقالت :

ـ آه ، يالك من ماكر ! لو لم اكن على حذر منك لأوقعتني كل مرة في الفخ ! على كل حال هذا الهزل خير من الـكآبة .

ـ يا للعجب ! رجل يعترف بالتورط في الاثم مع أصدق صديقة لزوجته ، ويقابل بالاستخفاف !

ـ هذا كلام لا يصح أن يصـدر منك .

ـ ربما كان يجدر بهذا الرجل ان يلجأ الى الانكار . وفي هـذه الحالة كان يمكن أن تحترمه الزوجة وتـكرمه ، مع الشك طبعا . ياحبيبتي ـ اقسم لك بكل ما هو مقدس انني لم يصـدر مني سواء بالقول أو الفعل اى شيء خادش للشرف مع مارجي . فهل تصدقين بعد هذا انني ارتـكبت اى اثم ؟

ـ انني احب المزاح ، لكن هذا ليس شيئا يمزح الانسان فيه .

ـ سأحاول مرة اخرى يازوجتى الجميلة . هناك فعلا امراة الحرف الاول من اسمها «م» قد طوقتنى بالشباك ، لاسباب تعرفها وحدها . وانا فى خطر داهم من الوقوع فى احدى شباكها .
ـ لماذا لا تفكر فى حظك ؟ ان الاوراق قالت شهر يوليو ، وقالت هذا ثلاث مرات . اننى رايت هذا بعينى راسى . سوف تنال مالا، ومالا كثيرا . ولكن فى هذا فقط .
ـ هل تحبين المال ، والمال الكثير يانور عينى ؟
ـ أحب المال ؟ ما قصدك ؟
ـ هل تحبين المال الى الدرجة التى تبرر فى نظرك كل أنواع التنجيم والعرافة والسحر والخزعبلات الخ ؟ ..
ـ تسالنى ان كنت أحب المال ؟ واقول لك اننى لا احب المال ، ولكننى لا أحب ايضا انشغال البال والهموم ، اننىاحب ان اكون فى وضع يسمح لى برفع راسى فى هذه البلدة . اننى لا أحب ان يشعر أولادى بالخجل والمذلة لانهم لايستطيعون ان يلبسوا كما يلبس غيرهممن الابناء .
ـ وهل المال هو الذى يرفع راسك ؟
ـ انه يزيل اثر السخرية عن وجوه جدودك المقدسين !
ـ لا أحد يسخر من عائلة هاولى .
ـ هذا ما تظنه . ولكن فقط لا تراه .
ـ ربما لاننى لا اتسقط ولا افتش .
ـ هل مفاخرك العائلية سلاح تشهره فى وجهى ؟
ـ لا ياحبيبتى . انها لم تعد سلاحا نافعا .
ـ الحمد لله انك اكتشفت هذا . فى هذه البلدة او فى اية بلدة اخرى فان بائع محل البقالة سليل اسرة هاولى هو مجرد بائع محل بقالة .
ـ هل تلومينني لفشلى ؟
ـ لا . بالطبع لا الومك . انما الومك فقط لجلوسك قانعا تتمرغ فى المجد القديم . بامكانك أن تخرج من هذه الوحدة اذا تخلصت من افكارك العتيقة . كل انسان يسخر منك . ان سليل الحسب والنسب المعدم انسان تافه .
لكن هذه الكلمة دوت فى سمعهاكالقنبلة ، حتى سكتت خجلة.
فقال ايثان :
ـ أنا آسف . لقد علمتنى شيئا ، بل ربما أشياء ـ الواقع ،

والممكن ، والمعقول . لقد عرفت الآن اين اجد المال لكى ابدا اليسر والغنى .

ـ اين ؟

ـ سوف اسرق بنكا .

وفى هذه اللحظة انبعث رنين المنبه المتصل بالموقد ، فقالت مارى:

ـ اذهب وناد الأولاد . ان اناء تلوين البيض جاهز. وقل لهم ان يطفئوا النور .

ووقفت تنصت الى وقع خطواته وهو يبتعد .

الفصل الثالث

شد ما احسد زوجتي ماري على سرعة استسلامها للنوم . فانها لا تكاد تستلقي في الفراش حتى تكوم على نفسها وتتنهد مرة واحدة ثم تغمض عينيها وتنفرج شفتاها عن ابتسامة هانئة ، وفي اللحظة التالية تسبح في عالم الأحلام .

ان ماري تعشق النوم ، والنوم يفتح أحضانه لها ترحيبا وحفاوة.

اما انا فانني أصارع النوم والنوم يصارعني حتى استحال الى معركة آبدة بيني وبينه . فاذا نمت كانت أحلامي هي متاعب النهار ومشاكله ، تتضخم وتتخذ أشكالا شتى أقرب الى أقزام تتراقص ، مرتدية قرون وأقنعة حيوانات .

ومن عجب أن عيد الفصح يقترن عندي بالأحزان ، ولكنه كان هذا العام أسوأ . فاليوم حمل على مارولو حملة شعواء بدعوى تلقيني طبيعة العمل وأسراره . وبعدها جاء من يقدم الى أول «رشوة» في حياتي . ثم هأنذا أمام مشكلة مارجي الملقبة «بالصيادة الشابة» . فهل هي مخلوق شرير ؟ وما غرضها مني ؟

وكم من ليلة امضيتها مؤرقا ساهرا مسهدا وأنا أسمع غطيط ماري الرقيق يملأ سمعي . انك اذا ذهبت تحدق في الظلام لا تلبث ان ترى بقعا حمراء تتراقص أمام عينيك . وفي هذه الليلة لم اتمالك عندما زادت البقع الحمراء امام عيني أن قررت أن انهض واخرج .

انني من الذين يؤمنون بأن الانسان يستطيع أن يحسن التفكير في مكان خاص يتخذه خلوة . ولهذا كان لي هذا المختلى ، وان كان التفكير عندي يقترن بالأحاسيس والتجارب والذكريات .

هكذا تسللت من الفراش بهدوء وهبطت الى الدور الأرضي حاملا ملابسي التي ارتديتها في المطبخ . ولكي لا تقلق ماري لغيابي اذا استيقظت فقد سطرت لها كلمة قلت فيها : « حبيبتي — شعرت بقلق ، فخرجت للقيام بجولة ، وساعود سريعا » .

ولما فتحت الباب الخلفي شعرت بالهواء قارسا منذرا بالصقيع ،

فاشتملت بمعطف ثقيل ووضعت فوق رأسي وأذني قلنسوة بحار من الصوف . وفي هذه اللحظة دقت الساعة مؤذنة بالثالثة صباحا، ومعنى هذا انني لبثت أراقب البقع الحمراء في الظلام أربع ساعات منذ الحادية عشرة .

ان بلدتنا « نيو بايتاون »، بلدة عريقة جميلة ، بل هي من أعرق وأجمل البلدان في أمريكا كلها . كان مستوطنوها الأوائل واجدادي من أرباب البحر المغامرين الذين ضاقت بهم أوربا ، فجاءوا الى ساحل أمريكا الشمالي واستقروا به ، ومزجوا في حياتهم ومعاشهم بين القرصنة والأنماط « البيوريتانية » . ولكن أبي الطيب القلب كان على نقيض هذه الخصائص ، وهكذا أضاع الأرض، والمال ، والمنزلة، والمستقبل ، والواقع انه ضيع كل ماراكمته أسرة هاولي خلال مئات السنين ، فيما عدا اسم الأسرة الذي كان وحده مناط اعتزازه . وكان أبي حريصا على تلقيني ماسماه « دروس الميراث العائلي » ، وهذا هو سبب معرفتي الوثيقة بتاريخ الأسرة وأمجادها . وربما كان أيضا سبب وجودي الآن كاتبا في محل بقالة رجل من صقلية ، في منطقة كانت كلها ملكا لأسرة هاولي .

تواردت في ذهني هذه الخواطر لمجرد انني قلت ان بلدتنا عريقة جميلة . لقد جمعت مبانيها بين القديم والحديث ، خصوصا تلك المنازل العصرية التي أقامها أحفاد صيادي الحيتان في شارع بورلوك وولتي والتي احتذوا انماطها متأثرين برحلاتهم البعيدة الى أقصى البحار والأقطار . ولكن بيت أسرة هاولي ظل في شارع « ايلم » محتفظا بطابعه التاريخي العتيق ، الى جانب بيوت أسر بيكر وفيليبس والجار ـ وان كانت ماري لم تلبث بعد وفاة أبي ان شبعت من سماع تاريخ الأسرة المكرر المعاد ، فاقترحت على نقل مخلفات الأسرة الى غرفة السطح ، ولم أمانع في هذا وأنا أعرف انها لم تكن من أبناء بلدتنا ولم تتقلب في ذكرياتها ، اذ كانت من أصل ايرلندي ، وكان لقائي بها في مدينة بوسطن وأنا ضابط برتبة الملازم أثناء الحرب العالمية الأخيرة ، وظلت وفية على عهدها معي طيلة الحرب ، وبعد زواجنا كانت مثال الاحتمال والصبر أثناء السنوات التي تعرضت فيها للانتكاس والافلاس ، ثم طوال وجودي بائعا في محل بقالة . ان ماري تحتمل وتصبر على الشدائد ، ولكنني أعتقد الآن انها تعبت من طول الاحتمال والمصابرة . ولهذا قد لايكون من المستغرب ان يتهاوى احتمالها فجأة وينهار صبرها على تلك الصورة التي

أسلفت .

ومهما يكن فانني تابعت سيري فوق الأرض المكسوة بالصقيع المتلالىء كالماس تحت انعكاس ضوء المصابيح متجها الى الميناء القديم . وفى الطريق بعد تقاطع شارع بورلوك وهيكس قرب مصنع الدراجات ، وقع نظرى على آثار واضحة لا تخطئها عينى المدربة فوق الصقيع المصقول المتجمد : بصمات خطا دانى تيلور الواسعة المتثاقلة ، دانى سكير البلدة ، سليل الأسرة الكريمة العريقة ، المتعلم الفاشل ، المطرود من الأكاديمية البحرية ، وصديق العمر كله. لماذا لايستقيم دانى المنكود ؟ انه يقتل نفسه قتلا بادمانه الخمر . وياله من عار يلحق به وباسرته اذ يستجدى ثمن الشراب استجداء. مما يعزى ان أبويه لم يبقيا على قيد الحياة لكى يقع نظرهما على بؤس حاله وسوء مآله .

ان دانى يمثل عندى جرحا داميا متجددا وحزنا مقيما لا يفتر وطالما حاولت مساعدته والأخذ بيده ، لكنه كان ولايزال يأبى على هذا باصرار . ان دانى بمثابة اخ لى ، فنحن متماثلان فى العمر والبنية . واسرته عريقة مثـــل أسرة هاولى او اسرة بيكر وغيرهما . وفى صبانا لم تكن نفترق لحظة فى مجال المرح واللعب ، وفى ظنى اننا لو ذهبنا الى الكلية معا لما حدث هذا . فقد التحقت انا بجامعة هارفاو ، ونبغت فى اللغات ، والعلوم الانســـانيـــة ، واغترفت من مناهل معرفة لم تعد ذات جدوى لمن عمل بائعا فى محل بقالة ، كما تطور اليه أمرى ، لكننى طالما اشتهيت لو أن دانى لازمنى فى هذه الرحلة الثقافية الباهرة الممتعة . ولكن دانى كان يعشق البحر بطبعه . وقد التحق بالأكاديمية البحرية معززا بنفوذ أبيه ، بيد أنه لم تنقض ثلاث سنوات حتى طرد منها ، مما عجل بنهاية أبويه ، ولم يبق منه الآن سوى ذلك الشبح السكير الذى يهيم على وجهه فى الليالى ، وحيدا ، يجر قدميـــه جرا . وعندما يستجديك نصف دولار ثمنا للشراب تناديك عيناه بالصفح عنه ، لأنه لايستطيع الصفح عن نفســه . وهو ينام فى كوخ حقير قرب مصنع السفن القديم الذى كان مملوكا لأجداده . وعنـــدما تمعنت الآن فى آثار الأقدام لأرى ان كان عائدا الى مثواه أوخارجا منه رأيت الآثار تشير الى خروجه ، وقد التقى به فى أى مكان .

كانت وجهتى الميناء القديم كما قدمت . فيه كانت ترسو سفن صيد الحيتان منذ مئات السنين عائدة من رحلاتها السنوية عبر

البحار القطبية وبحار الصين محملة بانقى زيوت حيتـــان العنبر وأنفس السلع . أما الآن فلم يبق من هذه المعالم القديمة سوى الاطلال والذكريات ، وأخصها تلك الصور الجميلة المشرقة التي طالما صورها لي جدي كابتن هاولى وانا بعد طفل صغير ، مستعينـــا بعصاه المشكلة من قرن ، حوت العنبر . ومن تلك الأطلال ذلك الـكهف الصخري الصغير القابع على مسافة عشرة اقدام من مياه الشاطىء : وهو ملاذى الذي جعلته مختلى ، الوذ به بعيدا عن الأماكن المطروقة كلما حز بى أمر من الأمور . وفيه كنت امضى ساعات من ليلى قبل انخراطى فى الخدمة العسكرية ، ومثلها قبل اقترانى بمارى ، ومثلهـــا ليـــلة أن ولدت ايلين ولادة متعسرة . فيه كنت أجلس الساعات المتعاقبة اصـــيخ السمع الى الأمواج الصغيرة تلعق جدرانه الصخرية وأستشرف البحر الطليق من خلال مدخله .

كانت التغييرات الـكبرى التى تطرأ على حياتى هى التى تأخذنى الى هذا المختلى .

هكذا هبطت الآن الى هذا الـكهف الصغير وجلست القرفصاء على أرضه وكأننى تمثال لبوذا .

ورب قائل يقول ان فى هذا بلاهة ، لـكننى لا ابالى . فأحيانا يكون من المتع الـكبيرة فى حياة الانسان أن يتعلق بالبـــلاهة أو السذاجة أو سمها ماشئت ، كالأطفال يلعبون التماثيل ويموتون من الضحك . بل ان التعلق بهذا الذى يعد من البلاهة والسذاجة يقتل الرتابة ويجلو صدأ النفس ويعين على شحذ الهمة من جديد. وكذلك كنت كلما مسنى الضيق وكربنى أمر من الامور لعبت لعبة البلاهة والسذاجة هذه ، دفعا لعدوى الـكرب أن تتسلل الى عزيمتى . وما أكثر هذه الـكروب التى الفيتها الآن تجابهنى . فان زوجتى مارى مثلا لاتزال سرا أمامى لم أنفذ بعد الى مغالقه . ولا اظن انها تعرف هذا المختلى لأننى لم أخبر أحدا بأمره . فهو مكان أتدبر فيه الأمور وأدير فيه الفكر . فما من انسان يعرف غيره من بنى البشر حق المعرفة ، وقصارى ما يبلغه هو أن يفترض انهم بشر مثله ..

وفى خلوتى الآن فى هذا الملاذ بمنأى من غائلة الرياح والمد يتسلل الى الـكهف قاتما تحت سماء مظلمة ، لم أتمالك أن رحت أتساءل : ترى هل لكل الرجال مختلى كهذا ؟ أو هم بحاجة الى مختلى ،

او يريدونه ولـكن لايجدونه ؟ احيانا كنت ارى نظرة فى الاعين ، نظرة حيوان ملهوف ، كمن يحتاج الى مكان سرى هادىء تجد فيه النفوس المضطربة سكنا لها ، حيث يلم الانسان بذاته ويقيم كيانه. والواقع انني أسمى كل ما يعرض فى المختلى « عملية تقييم » . ومن الناس من يسمونها « صلاة » ، ولعل الاثنين ان يكونا شيئا واحدا . ومهما يكن من خلاف فى الراى فانها عملية اجد فيها كل الجدوى ، بصرف النظر عن وجه الخطـا أو الصواب .

كانت امامى أمور كثيرة تقتضى التـــدبر وامعان الفكر ، وكانت تتواثب فى خاطرى ملوحة بأيديها تسترعى الاهتمام كأطفال فى مدرسة. منها موضوع مارى ، التى تركتها هائمة فى نومها وعلى شفتيها تلك الابتسامة الغامضة . كنت ارجو الا تستيقظ وتفتش عنى . لـكن اذا فعلت ، فهل تراها تسر الى بهذا ؟ ذلك ما أشك فيه . فى ظنى ان مارى ، على الرغم مما يبـــدو من انها تقول كل شىء ، لا تقول الا القليل . فهناك موضوع الثروة الذى لابد من تدبر أمره . فهل تريد مارى الثروة لنفسها أو تريدها لى ؟ وكونها ثروة موهومة من بنات افكار ماجى « الصيادة الشابة » لأسبـاب لا اعلمها لا يغير من الامر شيئا . فكثير من الثروات لا تعدو أن تكون وهما وسرابا . وأى رجل متوسط الذكاء يمكنه اقتناء المال ان كان هذا ما يريده . واكثر ما يبتغى المال من أجله هو النساء أو الملبس أو الاعجاب ، وهى فى النهاية تنحرف به عن الجادة . واقطاب المال من امثال مورجان وروكفلر لم تزغ عقولهم ، فما بغيتهم فى ابسط وجوهها سوى تحصيل المال ، وقد حصلوه . اما ماذا يفعلون به بعد تحصيله فهذا شىء آخر . واغلب ظنى انهم قد لابسهم الردع من هـــذا الغول الذى أطلقوه ، ولو استطاعوا التخلص منه لمـا ترددوا .

اما فى عرف مارى فالمـــال معناه ستائر جديدة وتعليم مكفول لاطفالها ورفع الرأس عاليا والافتخار بى بدلا من الخجل منى . لقد قالت هذا فى غضبتها امامى ، وهذا حق لا مراء فيه .

وفيما يتعلق بى ، هل اراني اريد المال ؟ الحق لا . ان شيئا فى داخلى كان يكره كونى بائعا فى محل بقالة . فى الجيش ارتقيت الى رتبة ملازم ، وان كنت اعرف ان الذى سما بى الى هذا من بين الصفوف هو الأسرة وما لها من روابط ، بيد اننى كنت مع ذلك مثال الضابط الصالح . لـكن لو اننى كنت حقا اريد التسلط

وفرض ارادتي على الآخرين والتلذذ بامتثالهم لأوامري ونواهي ، لبقيت في الجيش ، ولبلغت الآن مرتبة الكولونيل. لكنني لم أرد شيئا من هذا ، واستعجلت نفض يدي منه .

ثم هناك موضوع مارولو . لقد أصاب مارولو فيما قاله عن العمل ، وكونه الوسيلة لاقتناء المال . وقالها جو موبلى كلمة صريحة لا عوج فيها ولا ابهام ، وقالها ايضا مستر بيكر، ومندوب المبيعات . كلهم قالوها صريحة ساخرة مباشرة . فلماذا تقززت نفسي وكان الاثر الذي تركه كلامهم كأثر البيض الفاسد في المذاق؟ هل أنا شديد الصلاح ، أو شديد الطيبة ، أو شديد الاستمساك بالحق ؟ لا اظن هذا . هل أراني شديد الاعتداد بنفسي ؟ لابأس هناك بعض هـذا . هل أنا فاتر الهمة خامد العزم ، ينكل عن الاقدام ويبتعد عن التورط ؟ في الحق هناك قدر كبير من الطيبة السلبية التي ليست شيئا سوى الخمول وايثار البعد عن المتاعب او الارتباكات أو الجهود المبذولة .

وعندما بلغت هذا القدر من خواطري لاحت لي طوالع الفجر التي تسبق انبلاج الضياء . كانت لدى القدرة على شمها ولمسها. واذن فلا مناص لي من ان أعود ادراجي سريعا . وهكذا غادرت المختلى دون طقوس ولا مراسم كما دخلته ، وسلكت طريقي الى شارع « هاي » وانا أكاد أجري . ومررت بالنصب التذكاري للجندي المجهول ثم بمبنى البريد قبلما صادفت داني تايلور واقفا في مدخل أحد البيوت وقد دس يديه في جيوبه ورفع ياقة معطفه ، وكان وجهه في الضوء البازغ مربدا مزرقا من تأثير البرد والاعتلال .

قال لي :

ــ ايثان . أنا آسـف لازعاجك . لابد لي من بعض الشراب انت تعرف انني ما كنت افعل هذا لولا اضطراري .

ــ أعرف . انني أصدقك .

واعطيته دولارا وانا اقول :

ــ اهذا يكفي ؟

كانت شفتاه ترتعشان كشفتي طفل يوشك على البكاء ، وقال :

ــ اشكرك يا ايثان . نعم . هذا يكفيني طول النهار، وربما طول الليل .

وبدا احسن حالا عندما فكر في هذا ... فقلت له :

ــ داني . لابد ان تكف عن هذا . هل تظن انني نسيت ؟ لقد

كنت اخي ياداني . ومازلت أخي . انني على استعداد لكى اعمل اى شيء فى الدنيا لمساعدتك .

سرى شيء من القلق فى خديه الناحلين . ونظر الى ورقة البنكنوت فى يده وكأنما احتسي اول جرعة من الشراب ، ثم ما لبث ان رماني بنظرة باردة قاسية قائلا :

ــ ليس لأحد دخل فى شئونى .

ــ اصغ الى يا دانى .

ــ ولأى غرض ؟ اننى اغنى منك واحسن حالا . هل تتذكر بيتنا الريفى ؟

ــ الذى احترق ؟ حيث كنا نلعب فى البدروم ؟

ــ أراك تتذكره جيدا . انه ملك لى .

ــ دانى . بامكانك ان تبيعه وتبدأ بداية جديدة .

ــ لن ابيعه . ان الحكومة تقتطع جزءا من الأرض كل سنة استيفاء للضرائب . لكن المراعى الكبيرة حوله لاتزال ملكى .

ــ لماذا لا تبيعها ؟

ــ لأنها أنا . هذه الأرض هى دانى تيلور . طالما عشت فلن يجيئنى شخص رقيع يملى على ما افعل ويتسلط على بدعوى مصلحتى . هل فهمت ؟

ــ اصغ ياداني ...

ــ لن أصغى . ان كنت تظن هذا الدولار يعطيك الحق فى ان تعظنى فخذه .

ــ احتفظ به .

ــ سافعل . انت لا تعرف ما تتكلم عنه . انك لم تكن ابدا سكيرا . اننى لم أقل لك مرة كيف تلف اللحم المقدد . والآن اذا ذهبت فى طريقك فاننى ساطرق نافذة واطلب بعض «مطير العقول». ثم لا تنس انني احسن منك حالا . انا لست بائسا .

وتحول عنى ودس رأسه فى زاوية المدخل المغلق مثل طفل يلغى الدنيا كلها من وجوده بمجرد تحويل نظره عنها . وقد ظل كذلك الى ان يئست وواصلت سيرى .

ولما وصلت الى بيتى صعدت السلالم الخلفية بهدوء واضأت نور المطبخ . فوجدت الكلمة التى تركتها لزوجتى بعيدة قليلا عن وسط المنضدة ، وان كنت اكاد أقسم انني تركتها فى الوسط تماما .

وضعت اناء القهوة على النار وجلست أنتظر نضجها ، فلم تكد

حتى جاءت مارى . ان حبيبتى تبدو كفتاة غضة عندما تستيقظ، حتى لتستبعد أن تكون اما لصبيين نامـــيين . وان بشرتها لتفوح منهارائحة زكية ، كرائحة عشب قطعته وشيكا ، وهى ازكى رائحة عرفتها .

قالت لى : ماذا تفعل فى مثل هذا الوقت المبكر ؟

ـ لك حق فى سؤالك . اننى كنت مستيقظا معظم الليل. انظرى الى حذائى المبتل قرب الباب .

ـ واين كنت ؟

ـ هناك قرب البحر كهف صـــغير زحفت اليه بابطئى ورحت اراقب الليل والنجوم . فرايت نجما يخرج من البحر ، ولمـــا لم يكن صاحب فقد اعتبرته نجمنا . اننى روضته ثم اعدته الى مكانه لـكى يسمن .

ـ ها قد عدت الى الهزل والبلاهة . اظن انك استيقظت فقط، وهذا ما ايقظنى من نومى .

ـ ان لم تصدقينى فاسالى دانى تيلور . اننى اعطيته دولارا.

ـ ما كان يجب أن تفعل . سوف يسكر به .

ـ اعرف هـــذا . كانت هذه رغبة . اين ينام نجمنا يازهرتى العطرة ؟

ـ يسرنى انك عدت الى الهزل والبلاهة من جديد . فانت بشع عندما تكتئب .انا آسف لما قلت لك أمس عن الحظ والمال . لا اريد ان تظن اننى غير ســـعيدة .

ـ لا تشغلى بالك . هذا مكتوب لنا فى الطالع .

ـ ماذا ؟

ـ لست امزح . سوف احقق الطالع واجمع الثروة .

ـ اننى اتعب فى متابعة تفكيرك .

ـ هذه هى مشكلة قول الصدق . هل يمكن ان اضرب الاولاد « علقة » صغيرة للاحتفال بالعيد ؟ اعدك اننى لن اكسر عظامهم .

ـ انا لم اغسل وجهى . جئت مسرعة لاننى لم اتصور من كان يخبط فى المطبخ !

وعندما ذهبت الى الحمام وضعت الورقة فى جيبى وانا مازلت لا اعرف هل راتها أم لا . وهل يستطيع انسان أن يعرف دخيلة المراة ؟ ما هى دخيلتك يا مارى ؟ هل تسمعين بالله ؟

الفصل الرابع

جاء يوم السبت هذا مختلفا عندي عن غيره من الأيام . كنت كل يوم أكره أن أذهب لفتح محل البقالة . ولكنني اليوم شعرت بميل وإقبال على هذه العملية .

وقد قالت لي ماري معقبة :

ـ هل تخرج هكذا مبكراً ؟ أمامك نصف ساعة قبل الموعد . هذا نتيجة تبكيرك اليوم .

فقلت لها : هناك صناديق كثيرة لابد من فتحها ، وأشياء أكثر لوضعها على الرفوف قبل موعد الفتح . وأمامي قرارات خطيرة . هل أضع علب المخللات والطماطم على نفس الرف ؟ وهل لو وضعت معلبات المشمش والخوخ على رف واحد تتشاجر ؟.. أنت تعرفين أهمية التنسيق بين الألوان المطبوعة على الفساتين ...

فقالت ماري : أنت تمزح في كل شيء . لكنني مسرورة فهذا أفضل من التذمر . أكثر الرجال يتذمرون .

كانت البلدة هادئة اليوم ، ولكن الكثيرين غادروها بالطبع في عطلة عيد الفصح .

وصادفت في طريقي ستوني سميث شرطي النهار خارجا من مطعم فورماستر بعد شرب القهوة . كان ستوني هو الذي يباشر أعمال الشرطة في البلدة ، وكان رجلا ذكيا تمرس على أحدث الأساليب البوليسية وتلقى دراسة خاصة في المباحث الفيدرالية بواشنطن ، ومن ثم كان مرهوب الجانب ، بعكس زميله وي ويلي الذي كان يتولى الحراسة الليلية في سيارة الشرطة ، فيمضي أغلب الليل نائما .

قلت له وأنا أتطلع الى مسدسه وقيده الحديدي التي برزت حول جانبيه :

ـ عندنا عمل كثير اليوم ياستوني .

فرد قائلا : هيه ؟ لكن البلدة هجرها اليوم أهلها .

ـ هل من جرائم قتل ياستوني ، أم مجرد حوادث شغب ؟

ـ الهدوء مستتب هنا . هل سمعت عن عملية السطو على البنك في فلودهامبتون ؟

ـ لا . هل اخذوا كثيرا ؟
ـ ١٣ الف دولار كما قيل . انني كنت خارج البلدة طول الليل، وقد خرج ويلى للمساعدة .
ـ هل تظن انهم سوف يقبضون عليهم ؟
ـ أعتقد . فان شركات التامين لا تكف عن الصراخ والمتابعة .
ـ صحيح . اسمع ياستوني . بودى أن تتابع موضوع داني تيلور . انه يبدو في حالة سيئة جدا .
فقال ستوني : المسالة مسألة وقت فقط . سوف افصل بالتأكيد . حكايته مغرة فعلا . فهو شاب طيب ، ومن أسرة كريمة.
ـ ان حاله يقتلني . فانني احبه .
ـ وما الحيلة معه؟ ارى مطرا قريبا يا ايثان، وانا اكره البلل.
ولأول مرة فيما أذكر دخلت الحارة منتعشا وفتحت الباب الخلفي بانفعال . وبعد برهة رأيت جو مورفي يقترب من باب البنك الخلفي وبيده مفتاح الباب ، وكان بادى الاستياء ، ولما قلت له انني كنت اظن البنك مغلقا هذا اليوم قال لى :
ـ مكتوب على الا اغلق انا شخصيا . هناك خطأ في الحسابات قدره ستة وثلاثون دولارا ـ بالزيادة .
ـ هذا افضل بالطبع .
ـ لا . ولابد لى من معرفة مصدره .
ـ هل البنوك امينة الى هذا الحد ؟
ـ البنوك نعم . لكن الرجال هم الذين ليسوا كذلك . واذا كان لى أن أحصل على العطلة فلابد لى من معرفة مصدر الخطأ . هل سمعت عن حادث السطو على بنك « فلود هامبتون » ؟
ـ اخبرني ستوني . غريب اننا كنا نتحدث امس فقط عن حوادث السطو على البنوك . هل تتذكر ؟
ـ اعتقد انهم سيقبضون على اللصوص في خلال اسبوع أو اسبوعين .
ولما تركني كنست المحل ورفعت الستائر وانا في دوامة من المشاعر . وعلى مألوف عادتي كلما أهمني شيء ، رحت أتحدث الى أصدقائي المتراصين فوق الأرفف :
ـ رفاقي الأعزاء . اذا كانت الحوادث بهذه البساطة فلماذا لا يكررها أكثر الناس ؟ لماذا يرتكب معظم الناس نفس الأخطاء مرارا وتكرارا ؟ هل لابد من شيء ينسونه دائما ؟ ربما تكون نقطة

الضعف الأساسية نوع من الطيبة . ان ماروللو قال ان المال لاقلب له . الا يكون صحيحا اذن ان اية طيبة فى رجل المال هى نوع من الضعف ؟ كيف يسوقون الأفراد الطيبين العاديين الى ذبح الناس فى الحروب ؟ قد يفهم هذا اذا كان العدو يبدو مختلفا او يتكلم لغة مختلفة . لكن ما الراى فى الحرب الأهليــــة الأمريكية ؟ ان « اليانكى » أبناء الولايات الشمالية أكلوا الأطفال ، و « الثائرين » اماتوا الأسرى جوعا . اذا كانت قوانين التفكير هى قوانين الأشياء ، فان الأخلاق هى مسالة نسبية أيضا — وكذلك الفضائل والرذائل. كلها نسبية فى كون نسبى .

« أن ما قلته لمارى العزيزة كمزاح هو الحق . ان اجــدادى الأجلاء ملاك السفن وربابنيتها كانوا مفوضين فعلا بالاغارة على السفن التجارية اثناء الثورة الأمريكية وكذلك عام ١٨١٢ . عمل وطنى صميم ، ومطابق لنواميس الأخلاق . لكنهم فى نظر البريطانيين كانوا قراصنة ، وما أخذوه احتفظوا به . على هذه الصورة بدات ثروة الأسرة ، تلك الثروة التى ضيعها ابى . ومن هنا جاء المال الذى يجلب الغنى ويضاعف الثراء . وكان لنا أن نفاخر به ونتباهى .

« المال ليس فقط لا قلب له ، وايضا لا شرف ولا ذاكرة . المال محترم آليا اذا احتفظت به الى حين . لاتظنوا اننى أدين المــال وأندد به ، فاننى معجب به الى حد بعيد . ان بعض الأســماء العريقة بدأوا ثراءهم ببيع اللحم البقرى للبريطانيين عندما كانت بلادنا تحارب البريطانيين ، وأموالهم محل الاعجاب والتقدير مثل اى اموال اخرى ، وكذلك الأسرة العريقة . وأسرة أخرى لعلهــا أعظم أرباب البنوك جميعا . ان مؤسس الأسرة اشــترى ثلثمائة بندقية من الجيش . وكان الجيش قد رفضها لأنها أسلحة فاسدة وهكذا اشتراها بثمن بخس، ربما بخمسين سنتا للبندقية الواحدة. ولم يمض الا قليل حتى بدأ الجنرال فريمونت حملته البطولية فى اتجاه الغرب ، فاشترى البنادق بعشرين دولارا للواحـــدة . ولم يسمع أحد قط ان كانت البنـــادق قد انفجرت فى أيدى الجنود حامليها . وهذا نوع من المال الذى يولد المال . ولا يهم كيف تحصل على هذا المال طالما انك تحصل عليه وتستخدمه لتحصل منه على المزيد . ان سيدى وسيدكم ماروللو الذى ينتهى نسبه الى روما العريقة على حق كل الحق . حيثما يتعلق الأمر بالمال ، فان قواعد الأخلاق المرعية تأخذ اجازة .»

« تسالونني لماذا اكلمكم وانتم معلبات ويقول ؟ وربما لانكم اهل حكمة وتكتم . انتم لاترددون ما تسمعونه ولا تثرثرون . المال لايكون موضوعا شائكا الا عندما يقتنيه صاحبه . ولكنه محبب للفقير يهفو اليه ويتوق . لكن الا توافقونني على انه اذا اصبح الانسان مهتما اهتماما فعالا بالمال ، فلابد له ان يعرف شيئا عن طبيعته وخصائصه ونزعاته ؟ ان قلة قليلة من الناس ، ومنهم كبار الفنانين ، يهتمون بالمال لذاته » .

وبينما كنت منهمكا فى تفريغ صناديق المعلبات اذ سمعت طرقا عاليا على الباب الأمامى . ولما نظرت الى ساعتي الفضية العتيقة الفيتني لأول مرة فى حياتى لم افتح المحل فى الموعد المحدد وهو تمام التاسعة . كانت الساعة التاسعة والربع . وكان انهماكى فى التحدث الى المعلبات قد انسانى كل شىء . فاسرعت بفتح الباب ، واذا القادم مارجي « الصيادة الشابة » . ولم أكن فى الحقيقة قد نظرت اليها من قبل بامعان ولا تفحصتها . ولعل هذا هو سبب قراءتها للطالع ــ لكى تتأكد انني اشعر بوجودها .

فتحت الباب . فدخلت بقوامها الرجراج المهتز . ومارجي مخلوقة لو وصفها جو مورفى لقال انها « طبق شهى » . كانت منتظمة التقاطيع ، طويلة الأنف قليلا ، مليئة الشفتين ، مصبوغة الشعر بلون كستنائى يجاوز اللون الطبيعى ولكنه جذاب ، تتلون عيناها الزرقاوان تبعا لحالة الضوء فيخالطهما اللون البندقى او الفولاذى الثاقب .

وقفت برهة تقلب نظرها بينى وبين المعلبات ، وما لبثت ان قالت ضاحكة :

ــ انا محتاجة الى البن هذه المرة .

ــ هذا حال أكثر الناس .

ــ ما قصدك ؟

ــ ان أول عشيرة « زبائن » كل يوم يطلبون البن ــ بالمناسبة ، أريد ان اشكرك لارسال مندوب المبيعات .

ــ كانت هذه فكرته ، فلا محل للشكر .

وقدمت اليها علبة البن . وعندما مدت يدها لكى تاخذها منى تحرك كل عضو فى جسدها وترجرج كانما يعلن عن وجوده . كان كل شىء فيها جديدا ، اراه لأول مرة ، حتى لم اتمالك أن كتمت أنفاسى . ان مارى تقول ان المراة يمكنها ارسال اشارات ،

اذا هي ارادت . واذا صح هذا فان مارجي كان لديها « شبكة اتصالات » تبدأ من اخمص قدميها الى قمة شعرها !

قلت لها :

ـ ان قراءة الطالع كانت عملية مدهشة .

ـ هل تضايقت ؟

ـ لا . ولكننى اود فقط أن اعرف كيف امكنك هذا .

ـ انت لا تؤمن بهذا العمل .

ـ ليست مسالة ايمان . فانك حددت أشياء كنت افكر فيها وكنت أنوى عملها .

ـ مثل ماذا ؟

ـ مثل نيتى للتغيير .

ـ هل تظن اننى رتبت أوراق الطالع ؟

ـ ليس هذا هو المهم . ولو فعلت كذلك ، فما الذى جعلك تفعلين ؟ هل فكرت فى هذا ؟

واحت تتفرس فى عينى مستريبة ، مستخبرة ، متسائلة ، ثم قالت بصوت خافت :

ـ نعم . اعنى لا . اننى لم افكر فى هذا .

وفى هذه اللحظة اطل مستر بيكر براسه من الباب ، قائلا :

ـ صباح الخير يامارجي . هل فكرت يا ايثان فى اقتراحى ؟..

ـ فكرت فعلا . وبودى أن اتكلم معك .

ـ فى اى وقت تحب يا ايثان .

ـ الحقيقة اننى مشغول طول الاسبوع . فان مارولو لا يحضر الى هنا الا نادرا . هل ستكون فى البيت غدا ؟

ـ مؤكد ، بعد موعد الكنيسة . هـذه فكرة . احضر معك مارى حوالى الساعة الرابعة . وبينما تثرثر السيدات عن قبعات عيد الفصح ، نتسلل نحن و ...

ـ عندى مائة مسالة أريد أن اسالك عنها . الافضل أن اكتبها فى ورقة .

ـ اى شىء اعرفه سيكون تحت طلبك . سأنتظرك اذن . نهارك سعيد يا مارجي .

وعلى اثر انصرافه قالت مارجى :

ـ أراك بدات التغيير بسرعة .

ـ ربما كانت محاولة فقط قولى لى . ما رايك اذا قمت مرة

اخرى باستكشاف اوراق الطالع عشوائيا ، لمعرفة درجة قربها من نتيجة أمس .

فقالت :

ــ لا ! هذا لا ينفع . أم انت تسخر منى ؟ اننى اراك اليوم شخصا مختلفا . ما الذى سبب هذا يا ايثان ؟

ــ لا أعرف . ربما لاننى سئمت وجودى بائعا فى محل بقالة .

ــ لك حق ، وهذا هو الوقت المناسب . على كل حال سافكر فى اقتراحك عن استكشاف الطالع مرة ثانية .

ــ كلما اسرعت كان افضل ، قبل أن تفتر الطوالع .

وخرجت وهى تهتز مترجرجة ، ورحت انظر فى اثرها طويلا وكانها شخص غريب اراه لأول مرة ، او شخص معروف اراه بعين جديدة .

وقد حدثت مناسبتان هذا اليوم برهنتا لى ان هناك تغييرا عميقا وبطيئا بدا يتشكل فى نفسى .

كانت أولاهما قدوم ماروللو الذى اشتدت عليه وطأة الروماتزم حتى ذهب يثنى ويبسط ذراعيه مثل رافع اثقال. وقد بادرنى قائلا :

ــ كيف حال العمل ؟

ــ قليل .

ــ البلدة شبه مهجورة فى عطلة العيد .

ــ قل لى يا الفيو . منذ متى جئت من جزيرة صقلية ؟

ــ منذ ٤٧ سنة . مدة طويلة .

ــ الم تعد الى هناك مرة ؟

ــ لا .

ــ لماذا لا تذهب للزيارة ؟

ــ لأى سبب ؟ كل شىء تغير .

ــ ليس لك أقارب احياء ؟

ــ بالتأكيد . هناك اخى واولاده . وهؤلاء اصبح لهم أولاد .

ــ ربما يحلو لك أن تراهم .

فنظر الى كما نظرت الى مارجى قبله ، اذ عدتنى شخصا مختلفا ، وقال بارتياب :

ــ ما الذى يدور فى عقلك يافتى ؟ اراك اليوم شخصا مختلفا .

ــ الحقيقة عندى بعض الأخبار السارة .

ــ لعلك لا تنوى ترك العمل هنا ؟

ـ ليس حالا . ان اردت القيام برحلة الى ايطاليا فاعدك ان ابقى هنا .
ـ ما هى اخبـــارك الســـارة ؟ ..
ـ لايمكننى أن اقولها الآن .
ـ مال فى الطريق ؟
ـ ممكن . اسمع انت غنى بما فيه الكفاية . لماذا لا تعــود الى صقلية وتريهم كيف يكون الأمريكى الغنى ؟ أستحم هناك بالشمس ، بامكانى رعاية المحل . انت تعرف هذا .
ـ أراك تغيرت يافتى . ما السبب ؟
ـ قلت لك . اذهب ولاعب الأولاد .
ـ اننى لم اعد انتمى الى هناك .
لـكننى ايقنت اننى زرعت شيئا فى نفسه فعلا . وعرفت انه سيعود فى وقت متاخر هذه الليلة لجرد حســابات المحل . فهو مخلوق متشكك بطبعه .
ولم يكد ينصرف حتى جاء مندوب المبيعات بمحلات «ب.ب.د» كما فعل بالأمس . وقال لى :
ـ ليست هذه زيارة عمل . اننى ساذهب فى عطلة نهاية الأسبوع الى « مونتوك » . وخطر لى أن امر من هنا .
ـ يسرنى حضورك . اريد أن اعطيك هذا .
وابرزت له المحفظة الجلدية الثمينة تطل منهـــا ورقة العشرين دولارا ، قائلا :
ـ خذها .
ـ ما قصدك ؟ هل انت غاضب ؟
ـ لا بالتاكيد .
ـ اذن لمــاذا ؟
ـ خذها !
ـ يا الهى ! هل قدمت محلات « وايلاندز » عرضا افضل ؟
ـ لا .
ودفعت بورقة البنكنوت الى جيب صدره تحت المنديل المنمق ، وقلت له :
ـ ساحتفظ بالمحفظة . انها جميلة .
ـ اسمع . لايمكننى تقديم اى عرض قبل الرجوع الى الادارة . ساتصل بك تليفونيا يوم الثلاثاء .

ـ المكالمة وردها على حسابك .
ـ المهم ابقاء الخط مفتوحا .
ـ هل تنوى صـــيد الأسماك ؟
ـ لو كان معى سيدات . حاولت اخذ مارجى المغرية الى هناك ، لكنها كادت تحطم راسى . انني لا افهم النساء .
ـ انهن اغرب من الغرابة .
ـ على كل حال لا تفعل شيئا قبل ان اتصل بك . يا الهى ! كنت اظن انني اتعامل مع شخص ريفى ! ..
ـ انني لن ابيع رب عملي بثمن زهيد .
ـ كلام فارغ . انك فقط رفعت الثمن .
ـ انني فقط رفضت رشوة اذا اردت الصراحة .
وهذا برهان على انني أصبحت شخصا مختلفا . فان صاحبنا بدا ينظر الى باحترام ، حتى احببت هـذه النظرة . ان المغفل حسب انني مثله ، بل ابرع منه في المساومة !
وقبيل اغلاق المحل اتصلت بي مارى تليفونيا وقالت لى :
ـ ايثان ... لا تغضب ولا تفقد اعصابك .
ـ من اى شيء يا زهرتى العطرة ؟
ـ انني دعوت مارجى للعشاء عندنا ، فالمسكينة وحيدة و ...
ـ وما المانع ؟
ـ الست غاضبا ؟
ـ ابدا . وبالمناسبة ، اكوى اجمل فساتينك . سنذهب الى بيكر في الرابعة .
ـ في بيتهم ؟
ـ نعم . لنتناول الشاى .
ـ لابد أن ارتدى ملابس العيد لحفلة الكنيسة .
ـ اجمل واجمل يا بنفسجتى .
ـ انت غير غاضب بخصوص مارجى ؟
ـ انني احبك واعشقك !
وما كنت بهذا الا معبرا عن شعورى الصادق حيال مارى .

الفصل الخامس

انهمكت مارى فى اعداد وليمة العشاء لمناسبة زيارة مارجى « الصيادة الشابة » . وبينما كنت ارتدى ملابسى استعدادا للوليمة جاءنى آلان فى غرفة النوم سائلا عن علبة الحبوب التى يعلوها قناع الفأر . فقلت له :

ـ الحقيقة اننى نسيت . لماذا لا تمر فى المحل وتأخذها ؟

ـ سأفعل .

ـ وأين ايلين ؟

ـ انها تكتب موضوعها للمسابقة : احب امريكا .

ـ وموضوعك انت ؟

ـ اننى أفكر فيه . هل تمانع اذا سألتك سؤالا يا ابى ؟

ـ لى الشرف .

ـ هل صحيح انجانبا كبيرا من شارع «هاى» كان مملوكا لكم ؟

ـ صحيح .

ـ وهل كانت لنا سفن لصيد الحيتان ؟

ـ نعم .

ـ ولماذا ليست لنا الآن ؟

ـ فقدناها .

ـ وكيف ؟

ـ هذا ما حدث .

ـ هل عندك وقت لتصعد الى غرفة السطح معى ؟

ـ سأجد الوقت اذا كان الموضوع هاما .

ـ قلت لى انه توجد كتب ومراجع بها موضوعات مختلفة .

ـ اية موضوعات مثلا ؟

ـ موضوعات وطنية ، لأجل المسابقة .

ـ فهمت . ما رأيك فى هذا كنموذج : « هل الحياة غالية الى هذا الحد والسلام حلو بهذا القدر حتى يوجد من يشتريهما بثمن القيود والعبودية ؟ حاشا لله ! لست اعرف اى طريق يسلكه

غيرى ، أما أنا فاقول : اعطنى الحرية ، او اعطنى الموت ! » .
ــ رائع يا بابا !
ــ بالتأكيد . كانوا جبابرة فى تلك الأيام .
ــ ليتنى عشت فيها . سفن قرصنة ! بوم بوم ! ارفعوا الرايات ! سبائك الذهب وسيدات يلبسن الحرير والمجوهرات ! ليتنى عشت تلك الأيام . ان اهلنا عاشوها ، كما قلت انت .
ــ كانت نوعا من القرصنة المشروعة . واظن انها لم تكن حياة جميلة كما تبدو من بعيد .
ــ لا تهمنى المتاعب . كنت آخذ الذهب وأعود به الى البيت . اظنهم لايسمحون بهذا الآن .
ــ لا . العالم الآن اكبر واكثر نظاما . والعلاقات بين الأمم يسمونها الآن الدبلوماسية .
ــ هناك ولد فى مدرستنا كسب جائزتين فى التليفزيون ــ مائتان وخمسون دولارا . ما رأيك يا بابا ؟
ــ لابد انه ذكى .
ــ هو ؟ لا طبعا . هو يقول انها حيلة يقوم بها . اذا عرفت وسيلة الحيلة امكنك ان تنجح . وعنده مجلة بها جميع المسابقات فى البلاد كلها . هل يمكن أن أحصل على احدى هذه المجلات يابابا ؟
ــ حسنا . اذا كانت القرصنة قد انتهت ، فان الحافز مازال باقيا .
ــ ما قصدك ؟
ــ مال بلا مجهود .
ــ هل يمكن أن أحصل على تلك المجلة ؟
ــ كنت اظن ان تلك الالاعيب قد انتهت بعد الفضائح التى نشرت عنها .
ــ وأين الفضائح ؟ كل ما هناك انهم يحتالون لاجراء تغييرات فى النصوص . بودى ان انال نصيبى من تلك الغنائم .
ــ هى غنائم اذن ؟
ــ هى نقود ، بصرف النظر عن كيفية الحصول عليها ؟
ــ لا أوافق على هذا . ان الضرر لا يقع على النقود بقدر مايقع الشخص المتحايل .
ــ لا ادرى كيف . ليس هذا ضد القانون . الغريب أن بعض الشخصيات الكبيرة فى بلادنا .
ــ ولدى ! .. ولدى ! ..

ـ ماذا تقصد يا ابي ؟ ..
ـ هل لابد أن تكون غنيا يا آلان ؟ ..
ـ وهل تظن انني أحب ان اعيش دون أن تكون لي دراجة بخارية ؟ وكيف الحال اذا كانت عائلتك ليست لها سيارة ، بصرف النظر عن التليفزيون ؟
ـ كلامك صدمة كبيرة لي .
ـ انت لا تعرف الحقيقة يا ابي . مرة كتبت في الفصل موضوعا عن كيف كان جدي الأكبر ربانا لسفينة صيد الحيتان .
ـ انه كان كذلك .
ـ الفصل كله انفجر بالضحك . وقد سموني « الحيتاني » ! ما رأيك في هـذا ؟ ..
ـ شيء مؤلم .
ـ لن يكون مؤلما لو كنت محاميا أو صرافا في البنك أو شيئا مثل هذا . هل تعرف ما الذي سأفعله بأول « غنيمة » أفوز بها في مسابقة من هـذا النوع ؟ ..
ـ ماذا ؟
ـ سوف اشتري سيارة حتى لا تشعر بالاحراج وانت ترى معظم النـاس عنـدهم سيـارات .
ـ شكرا لك يا آلان .
قلت هذا وقد شعرت بجفاف في حلقي . ثم اضفت :
ـ عندما نصعد الى غرفة السطح بعد قليل سأبحث لك عن مجلد ضخم به جميع الخطب العظيمة التي القاها زعماء امتنا . وأرجو أن تقرأها يا آلان .
ـ سأفعل . انا محتاج اليها .
وتركته وانا ابلل شفتي . كان آلان على حق . كان حرجي شديدا .
وبعد ان جلست في مقعدي الـكبير تحت مصباح القراءة جاءتني ماري بالجريدة . فقلت لها :
ـ كم أنت سباقة الى كل ما هو مريح . عندي سر أقدمه لك هدية . ان مارجي زارتني اليوم بدعوى حاجتهـا الى البن . وعندما تكلمنا عن قراءة الطالع اقترحت عليهـا أن تكرر المحاولة وتنظر ان كانت النتيجة واحدة .
ـ لاشك انك لم تفعل هـذا ! ..
ـ بل فعلت . وقالت ان هذا يكون شيئا طريفا .

ـ وهل تظن انها ستفعل ذلك هـذه الليلة ؟
ـ اظن ان هذا هو سبب حضورها .
ـ آه . لها . انني دعوتها للعشاء .
ـ بعد أن مهدت لذلك من جانبها .
ـ الحقيقة انت لا تحبها .
ـ بالعكس . انني بدأت أحبها واحترمها .
ـ ليتني اعرف متى تهزل ومتى تجد ! ..
وفي هذه اللحظة جاءت ايلين بهدوء حتى لا تستطيع أن تعرف ان كانت تسترق السمع أم لا ، ولكنني أشـك انها كانت . ان ايلين في عامها الثالث عشر حلوة مرحة رقيقة مع ميل الي الكآبة ، وطبع شكس اذا لزم الأمر .
قلت لها وقد جلست على مسند المقعد ملاصقة لي :
ـ سمعت انك مشغلة بموضوعك .
ـ الواشي اخبرك بهذا .
ـ هل هو جميـل ؟
ـ جدا . وسأدعك تقراه بعد ان اتمه .
ـ لي الشرف . اراك لبست استعدادا لوليمة الليلة .
ـ هـذا الفستان القديم ؟ انني ادخر فستاني الجديد لحفلة الـكنيسة غدا .
ـ فـكرة جميلة . سوف يكون هناك فتيان .
ـ انني اكره الفتيـان .
ـ اعرف هذا . العداوة هي شـعارك . أنا شخصيا لا احبهم كثيرا . الآن أريد أن اقرأ الجريدة .
فمالت عني ، ولـكنها قالت تنتقم مني في الحال :
ـ متى سوف تصبح غنيا ؟ ..
نعم . انها سوف تنغص يوما على رجل المستقبل حيـاته بمثل هذا الأسلوب ، وقد هممت أن اضربها « العلقـة » التي كنت أهدد بها ، خصوصا بعد أن رأيت نظرة التشفي في عينيها ، لكنني امسكت وقلت :
ـ في الأسبوع القـادم .
ـ حسنا . الأفضل أن تسرع . انني سئمت الفقر .
واسرعت بالابتعاد . انني أهيم بها رغم كل عيوبها .
كان مكتوبا على الا اقرأ الجريدة . فقد وصلت مارجي .

فى الصباح كانت مارجى « الصـــيادة » التى جاءتنى وفى نيتها وملامحها وزينتها الصيد والقنص. اما الآن فكانت الضيفة المحتشمة، الرقيقة ، المتواضعة ، الرزينة . وكان مسلـكها نحوى كأننى زدت اربعين سنة منذ الصباح . يا للمرأة من مخلوق غريب . اننى معجب بما تفعله المرأة ، وان كنت لا افهم له سرا .

وكانت وليمة العشاء سلسلة من عبارات الاعجاب بجودة الطعام ومذاقه . وبعد شرب القهوة ارادت مارى ان تتخلص من وجود « الأولاد » ، فقالت انهما سيتكفلان بغسل الأطباق ، ولـكننى انقذت الموقف قائلا :

ــ لكننا نعطلهما عن موعد السينما اذا لم نمكنهما من الخروج الآن

لم تكن هناك نية لذهابهما الى السينما ، ولـكن مارى فهمت ، وتطلعت الى بنظرة اعجاب لم تخل من انزعاج خفى .

وبدأ ثلاثتنا يحومون بحذر حول الموضوع الذى كنا نعلم انه آت لاريب فيه . فقالت مارى مستهلة :

ــ اننى لا اكاد افهم ايثان . كان طول عمره يكره قراءة الطالع، ويتندر عنه . فما الذى غير احواله ؟

فقلت وانا مسترخ فى مقعدى الوثير :

ــ المسألة هى ان ملايين النـــاس يسعون الى معرفة الطوالع ويدفعون من جيوبهم . وهذا ما يجعل مثلى يهتم بالموضوع كغيره من عباد الله . ثم اننى اود ان اعرف شيئا عن أوراق اللعب التى تكشف الطالع . اننى جاهل ، وكثيرا ما سـمعت ان « الغجر » يمارسون هذه العملية . هل انت « غجرية » ؟

فقالت مارى عنها :

ــ ان اسمها الأول كان روسيا ، ولـكنها جاءت من الاسكا .

فقالت مارجى موضحة :

ــ عندى سر مؤلم لم أخبرك به يا مارى، وهو كيف كنا فى الاسكا .

فقلت :

ــ ان الروس كانوا يملـكون على الاسكا . وقد اشتريناها منهم .

ــ نعم . لكن هل عرفتم انها كانت سجنا ، مثل سيبيريا ، ولكن لاسوأ انواع الجرائم ؟

ــ اية جرائم ؟

ــ ان جدتى الكبرى حكم عليها بالنفى والسجن فى الاسكا بتهمة السحر .

ـ وماذا كانت تفعل ؟
ـ كانت تثير العواصف .
فقلت ضاحكا :
ـ فهمت الآن كيف ينطبق عليك هذا الوصف .
ـ تثير العواصف ؟
ـ يعنى تقرأ الطوالع . وربما كان نفس الشيء .
فقالت ماري : انت تمزحين .
ـ ربما . لكن هذا حقيقى . كانت هذه جريمة اسوأ من القتل ان اوراقها لا تزال عندى ، وان كانت باللغة الروسية .
ـ أيمكنك ان تقرئى الروسية ؟
ـ قليلا الآن .
فقلت : ربما كان السحر هو اسوأ جريمة .
فقالت ماري : هل سمعت . انه يقفز هنا وهناك ، ولا يعرف أحد اتجاه تفكيره ! على كل حال أود أن تقرأ مارجى الطالع ، ولكن بطريقتها الخاصة دون ان تتدخل انت يا ايثان . اذا جعلنا نتكلم فسوف يعود « الأولاد » ولا نتمكن من شيء .
وجئت بمنضدة تنبسط وتنطوى كطلب ماري ، وجلست مارجى فى مقعد مستقيم الظهر كطلبها هى ، وقالت :
ـ ركزوا .
ـ على اى شيء ؟
ـ على لاشيء بقدر ما يمكن .
واخرجت من كيسها مجموعة نظيفة مصقولة من أوراق اللعب ، وان كانت أطول واضيق من الأوراق المعتادة ، ويزيد عددها عن ٥٢ ورقة .
وبدأت مارجى تقلب الأوراق . وكانت أسماؤها مكتوبة بالفرنسية : الامبراطور ـ الناسك ـ المركبة ـ العدالة ـ الشيطان ـ الأرض ـ الشمس ـ القمر ـ النجوم ، الى جانب مجموعات من السيوف ، والكئوس ، والصولجانات ، والنقـــود . وكانت كل مجموعة مع « ملـكها » ، و « ملـكتها » ، و « فارسها » . ثم رأيت أوراقا غريبة ـ مغلقة ـ برج يشقه برق ، وعجلة الحظ ، ورجل معلق من رجليه فى مشنقة سمى باسم « الهالك » ، والموت ـ مرموزا اليه بهيكل عظمى ومنجل .
لم اتمالك أن قلت :
ـ مناظر كئيبة . هل تعنى الصور ومدلولاتها ؟

ـ المسألة متعلقة بحركتها بالنسبة لبعضها البعض . اذا سقطت مقلوبة فانها تعكس المعنى .
ـ وهل هناك اختلاف فى المعنى ؟
ـ نعم . وهو الاستخلاص والتفسير .
ـ أين تعلمت هذا ؟
ـ اعتدت أن أراقب جدتي . وفيما بعد اعتـــدت ان أمارس العملية كنوع من « الحيل » فى الحفلات ـ لجذب الانظار فيما اظن .
ـ وهل تؤمنين بهذا العمل ؟
ـ لا أعرف . أحيانا تظهر نتائج عجيبة .
وبدت يداها كشيء حي وهي تخلط الورق وتقسمه ثم تخلطـــه وتقسمه ثم تقدمه الى لـكى أسحب . فقلت لها :
ـ وماذا أفعل ؟
فهتفت مارى :
ـ اقرأ يا ايثان ! انظر ان كان يطابق ما ظهر امس !
فنظرت الى مارجى قائلة :
ـ أشقر الشعر . ازرق العينين . هل انت تحت الاربعين ؟..
ـ يكاد .
ـ ملك الصولجان . هذا انت .
وأخرجت من مجموعة الورق ملـكا متوجا وموشحا ممسكا بيده صولجانا كبيرا احمر وازرق ، فوضعته مكشوفا واعادت خلـــط الورق . ثم اخذت تقلب الأوراق بسرعة وهى تتكلم بصوت غنائى . ووضعت ورقة فوق ورقتى قائلة : « هذه تغطيك » . ووضعت ورقة أخرى بالعرض قائلة : « وهذه تفسد أعاديك » . ثم ثالثة فوقها : « وهذه تتوجك » . ثم رابعة تحتها : « وهـــذه تسندك وتقويك » . بهذا شكلت صليبا من الورق فوق المنضدة . وبسرعة سحبت أربع ورقات صفتها الى يسار الصليب قائلة : « أنت بذاتك ، وبيتك ، وآمالك ، ومستقبلك » . وكانت الورقة الأخيرة هى الرجل المشنوق المسمى بالهالك ، ولـكنه بدا من مجلسى حول المنضدة معتدل الوضع . فقلت :
ـ كل هذا مستقبلى ؟
فقالت وهى ترسم خطا تحت شفتها السفلى :
ـ قد يكون المعنى الخلاص والنجاة .
وقالت مارى :

ـ هل المـال موجود فى الطالع ؟
فأجابت مارجى شاردة الفكر :
ـ نعم . موجود .
وفجأة جمعت الأوراق وخلطتها مرارا ثم كشفتها وهى تغمغم كلماتها الطقوسية بصوت خافت . وبدا انها لا تتفحص ورقة بعينها ولـكن المجموعة كلها فى آن واحد ، وكانت نظراتها بعيدة غائمة .
ياله من تحايل بارع ! فارسة فى مجتمعات النسـاء ! اذا استطعت أن تسيطر على الحاضرين وتشد أعصابهم بحيث يكتمون انفاسهم ويرتقبون متشـــوقين أمدا طويلا ، فسوف يصدقون أى شيء . ليست المسألة تصنعا ، بقدر ما هى فن وتوقيت . لاشك ان هذه المرأة تضيع موهبتها مع من تصطادهم من مندوبى المبيعات . لـكن ما الذى تريده منا أو منى ؟
فجأة جمعت أوراقها وأعادتها الى علبتها الحمراء قائلة :
ـ لايمكننى اتمام القراءة . هذا يحدث احيانا .
فقالت مارى لاهثة :
ـ هل رأيت شيئا لا تريدين ان تقوليه ؟
ـ آه . أننى اقول كل شيء بصراحة . مرة عندما كنت فتـاة صغيرة رأيت حية تغير جلدها ، الحية ذات الجرس التى توجد فى جبل روكى . لقد راقبت العملية كلها . وحدث الآن وانا انظر الى الأوراق انها اختفت من امام نظرى ، ورأيت تلك الحية تغيرجلدها ، فكان جزء منه ترابيا مسننا وجزء جديدا غضا . لكم ان تحلوا المعنى.
فقالت مارى بحماس :
ـ ربما كان هذا رمزا لتغيير فى حظ ايثان سيحدث قريبا .
ـ أهو حية ذات جرس ؟
ـ آه . فهمت قصدك
فقالت مارجى :
ـ أكاد اشعر بقشعريرة . حدث اننى مرة شعرت بميل الى الحيات ، ثم لمـا كبرت أصبحت اكرهها . يحسن ان أذهب الآن .
ـ يمكن أن يصحبك ايثان الى البيت .
ـ هذا بعيد عن تفكيرى .
ـ شيء كهذا يسرنى
فنظرت مارجى الى مارى وقالت باسمة :
ـ احرصى على وجوده دائما بقربك . لايمكنك ان تتصورى ماهو

شعور المرأة بغير رجل .
فقالت مارى :
ـ كلام فارغ . بامكانك أن تنالى زوجا باشارة من اصبعك .
ـ هذا ما فعلته من قبل . لكن بلا فائده . ان من يأتون بمثل هذه السهولة لا يستأهلون الاستحواذ عليهم . حافظى عليه . فقد تختطفه منك احداهن . وليمة جميلة . ارجو ان تتكرر . آسفة يا ايثان بخصوص الطالع .
ـ هل سنراك فى الكنيسة غدا ؟
ـ لا . سوف أسافر الى ضاحية مونتوك الليلة .
ـ لكن الطقس هناك بارد رطب .
ـ انني أحب الصباح على شاطىء البحر هناك .
وخرجت حتى قبل أن أفتح لها الباب ـ خرجت وكأن شيئا يطاردها .
وقالت مارى على الأثر :
ـ ايثان . ماذا تستخلص من قراءة الطالع الليلة ؟
ـ انها لم تقرأ شيئا .
ـ انت تنسى . قالت انه قد يكون فيه مال . لكن ما رأيك ؟ اظن انها رأت شيئا لا تريد أن تخبرنا به ـ شيئا أثار خوفها .
ـ وربما رأت الحية مرة فبقيت فى عقلها .
ـ لعلك لا تظن ان لهذا ـ معنى ؟
ـ انت ياحبيبتى خبيرة بالطوالع . كيف لى ان أعرف ؟
ـ لابأس . يسرنى على أى حال انك لا تكرهها . كنت اظن ان هذا هو شعورك .
ـ انا مخادع . انني اخفى أفكارى .
ـ ليس عنى . انها تتكشف فى الوقت المناسب . آه . نسينا « الأولاد » . لنستعد الآن لعودتهم .

الفصل السادس

كان من عادتي ان ارجيء اتخاذ قرار في موضوع ما الى حين اتدبره واقلبه على مختلف وجوهه . فاذا انبريت له بعد ذلك اراه وقد اضحى حله واضحا والراى فيه محددا . ولابد أن هذا هو ما يحدث لكل انسان ، وان لم يكن لى من سبيل للقطع بهذا. والتعليل يبدو وكأنما قد انعقدت في شعاب العقل ودروبه المظلمة محكمة خاصة واصدرت في المشكلة قرارها بعد مداولات خفية .

وما من شك في ان هذه المداولات الخفية في شعاب العقل ودروبه المظلمة تتجلى آثارها المحتومة فيما يعتور الانسان من تغيير مستمر يعمل في الأعماق ولا يطفو الى السطح الا بعد حين .

والواقع انني كنت أشعر في العهد الأخير بكثير من الأشياء الصغيرة . وقد بدات تتخذ اشكالا اكبر ، وكان الأحداث والتجارب في حياتي كانت تتصارع لكي تدفعني في اتجاه مضاد لوجهتي الطبيعية أو التي كنت اظنها طبيعية ـ وجهة بائع محل البقالة ، الخائب ، الانسان الذي لا أمل أمامه ولا هدف ، الذي شدت أمامه المسالك بما يحمل من اعباء اطعام بطون وكسوة اجساد اسرته ، المقيد بانماط وعادات ومذاهب كنت اعدها فاضلة قويمة . بل يسوغ لي أن أقول انني كنت مطمئنا الى اندراجي تحت وصف ما يسمونه « الرجل الصالح » .

ومن المؤكد انني لم آكن غافلا عما يدور من حولي في أرجاء بيئتي المحدودة . كان القاضي دوركاس يتصرف في بعض القضايا الصغيرة مثل قضايا مخالفات المرور تصرفات فيها مجال لتبادل الخدمات والمنافع . وكان العمدة ، الذي هو ايضا صاحب مؤسسة بود لمواد البناء ، يبيع المواد للبلدية باثمان مرتفعة ، وبعضها مما لايحتاجون اليه . وعندما كان يتقرر شق شارع جديد ورصفه ، كان يحدث دائما أن يكون مستر بيكر ومارولو وزمرة أخرى من كبار رجال الأعمال سباقين الى شراء قطع الأراضي على جوانب الشارع حتى قبل اعلان المشروع . كانت هذه الأشياء هي الظواهر الطبيعية المألوفة ،

ولكنني كنت اعتقد دائما انها ليست موائمة لطبيعتي . وقد رأيت ماروللو وبيكر ومندوب المبيعات ومارجي وجو مورفي يكرونني برفق بل يكادون يستحثونني ، الى حد ان ايماءاتهم وتلميحاتهم بدأ يكون لها مكان من تفكيري وعنايتي .

وقد كان يجب أن أنام هذه الليلة نوما عميقا بعد يقظة الليلة الفائتة أسوة بحبيبتي ماري التي استغرقت في اهنأ نوم ، لكن هذا لم يحدث . فان « النقط الحمراء » ظلت تسبح أمام عيني بلا انقطاع . وصحيح انني رحبت بها لكي افكر في موضوعات شتى مثل موضوع « مسابقة احب أمريكا » التي سيشترك فيها ولداي ، ولكن الجانب الأوفر من تفكيري كان ينصب على التأمل فيما هو حادث لي من هذا التغيير وفيما ينبغي أن أفعل حياله ، ثم ألفيت فجأة ان مؤتمر المداولات الخفية في شعاب العقل ودروبه المظلمة قد فصل في الأمر بقراره وأوضح الطريق أمامي بما لا لبس فيه ولا غموض . والظاهر انني كنت آخر من يعلم . فطوال اليوم كان الناس يلاحظون انني ابدو احسن حالا ، وكان قصدهم انني ابدو مختلفا ، متغيرا عن سابق حالي ، واكثر ثقة بنفسي. ودليل ذلك ان مندوب المبيعات قد فوجيء بما لمسه من تغيير في مسلكي. وماروللو ذهب يتفحصني مستريبا متشككا . وجو مورفي كان يبدي تعليقات عميقة المضمون . ثم جاءت مارجي « الصيادة الشابة » التي لعلها كانت أنفذهم ذكاء بقصتها عن الحية . لاشك انها استطاعت بطريقة ما ان تكتشف حقيقة واقعة عني قبلما تهيأ لي اكتشافها . وكان الرمز هو قصة الحية ذات الجرس .

ثم ان هيكل التغيير الجادة في نفسي كان يستهدف لضغوط من خارجي : تمثلت في رغبات آلان ومشتهياته ، وغمزات ايلين وتلميحاتها ، وما وعد به مستر بيكر من مساعدات .

وحين كنت أماري في هذا التغيير كان يعرض لي أحيانا هذا السؤال : افرض ان كونك بائعا متواضعا على الدوام وبلا أمل في التغيير لم يكن فضيلة ولا استقامة ولكن لونا من الخمول والتراخي وفتور الهمة ! ان النجاح في اي شيء يتطلب جرأة واقداما . وربما كنت مترددا هيابا ، خائفا من النتائج . ان الأعمال الناجحة في بلدتنا ليست معقدة ولا مبهمة ، ولو جرى استقصاء وتحقيق للجرائم المتعلقة بالأعمال الحكومية والنشاطات الفردية في البلدة لوجد ان مئات القوانين والقواعد الاخلاقية قد انتهكت ، وانعلت

من قبيل الانتهاكات اليسيرة والمخالفات الهينة. واعرف رجل الأعمال الناجح عندنا اذا نال ما يريد ، عمد الى تطبيب نوازع الفضيلة عنده بأسهل مما يغير قميصه . وكأني بهم يقولون : اذا كانت الجرائم الصغيرة تغتفر ويتجاوز عنها ، فلم لا يكون المثل مع كبرياتها ؟ ان مستر بيكر مثلا لم يقتل ابى ، لكنه عمل من طرف خفى على احراق السفينة « بيل آدير » وغرقها للفوز بالتأمين . اليس هذا من كبريات الجرائم؟ وهل تجد بين الثروات الكبرى التى نعجب بها ثروة لم تتحقق بالفتك والتجرد من نوازع الخلق ؟ لا أجد بينها ما لاينطبق عليه هذا الوصف .

ولو اننى وضعت قواعد الأخلاق جانبا الى حين ، فمما لاشك فيه اننى سأكون عرضة لجراح كثيرة . لكن هل ستكون جراحا اسوأ وانكى من جراحى الحالية ـ جراح الفشل والاحباط ؟ اذا كان للانسان ان يبقى على قيد الحياة ، فلا مفر من هذه الجراح .

لكن اذا أنا فتحت على نفسى هذا الباب ، فهل تكون لى القدرة على اغلاقه مرة اخرى ؟ لا ادرى . ما يكون لى أن أعرف حتى أفتحه ... وهل كان مستر بيكر يعرف ؟ وهل فكر مستر بيكر فى شيء من هذا ؟ كان ابى يعلم ان أسرة بيكر أحرقت سفينة « بيل آدير » للحصول على التأمين . فهل كان هذا هو السبب الذى من اجله يسعى مستر بيكر لمساعدتى ؟ هل كانت هذه هى « الجراح » التى علقت به فى المعترك المتصارع ؟

كان من عادتى اذا أبهمت على المسالك ان الجأ الى جدى الأكبر استشيره فى خيالى وأستمد منه الحكمة وفصل الخطاب . وفى هذا الموقف رايتنى أسأله فى خيالى :

ـ هل أمضى بسفينتى فى هذا الطريق ؟ هو طريق آمن ؟ وهل يوصلنى الى بر السلامة أيها الربان المجرب ؟

ولكن لأول مرة الفيته يضن على بالرأى الهادى ، اذ قال :

ـ لابد لك أن تختار الطريق بنفسك . ان ما ينفع انسانا قد يضر غيره ، ولن تعرف النافع من الضار الا فيما بعد .

هكذا ضن على العجوز الداهية بنصحه . لكن ربما لم يكن هذا ليغير من الأمر شيئا . فلا أحد يريد النصح وانما يريد التأييد والتأكيد .

الفصل السابع

كان افطار أحد الفصح رائعا بما اشتمل عليه من البيض الملون والفطائر واللحم المقدد . ولم يكد النهار يتقدم حتى فوجئنا بزيارة ماروللو لنا فيالبيت لأول مرة ، ولما دعوته الى الجلوس قال لى :

ـ لا . عنـدى لك كلمة واحدة . لقد سمعت عن تلك الهدية التى قدمها لك ذلك المندوب المتجول ، وسمعت كيف طردته .

ـ من اخبرك ؟

فأجاب باسما : لايمكن ان اقول .

ـ لابأس. وماذا عنها ؟ هل تريد ان تقول انهكان يجب انأقبلها؟

فتقدم منى وصافحنى بقوة قائلا :

ـ أنت شخص أمين .

ـ ربما لم يقدم لى ما فيه الـكفاية ؟

ـ هل تمزح ؟ أنت شخص أمين .

ومد يده الى جيبه المنتفخ واخرج منه كيسا قائلا وهو يربتعلى كتفى :

ـ خذ هذا .

وانتابه الارتباك والحرج ، فاستدار وولى هاربا .

نظرت الى الـكيس ، فكان به بيض الفصح المحلى الملون ، وهو متوافر عندنا فى محل البقالة . ولما قلت لمارى ان ماروللو جاء بهدية للأولاد قالت بدهشة :

ـ ماروللو ؟ يقدم هدية ؟ لايمكن أن أصدق !

ـ هذا ماحدث .

ـ لماذا ؟ انه لم يفعل ابدا شيئا كهذا !

ـ اظن انه يحبنى .

ـ هل هناك شيء لا أعرفه ؟

ـ يازهرتى الجميلة . ان الحياة فيها مئات ملايين الأشياء التى لا نعرفها .

كان موعدنا اليوم لزيارة اسرة بيكر .

ولايمكن أن يعرف الانســـان اناسا مثل اسرة بيكر ما لم يكن يعرفهم منذ نشأته . ان التعارف السطحى ، بل الصداقة ، كلاهما شيء مختلف عن هذا . وكنت أعرفهم الآن أسرة هاولى واسرة بيكر كانتا متماثلتين فى الحسب والنسب ، والمنشأ ، وتجارب الحياة ، والثروة . ومن شأن هذا ان يجعل الأسرتين فى شبه نطاق خاص بهما بعيدا عن الدخلاء . وبعد أن فقد ابي ثروته ، لم تقفل اسرة بيكر الباب فى وجهى ، وبقيت مقبولا لديهم بحكم الصلات الوثيقة التي جمعت فى الماضي بين الأسرتين . ولـكننى معدود من الفقراء . والأعيان بلا مال لايبقون معدودين من الأعيان . ان ابنى الآن ، بلا مال ، لن يعرف آل بيكر ، وابنه سوف يكون دخيلا عليهم ، مهما يكن من اسمه وحسب أسرته . لقد اصـــبحنا مزارعين بلا أرض ، قادة بلا جنود ، فرسانا على الأقدام . ومن غير الممكن أن نبقى محتفظين بوجودنا . وربما كان هذا هو احد اسباب «التغيير» الذى كان حادثا لى فى هذه الآونة . اننى لا اريد المال ، ولم أرده فى أى وقت سابق ، من أجل المال . لـكن المال ضرورى للحفاظ على وضعى فى النطاق الذى اعتدته والذى يكفل لى الأمن والاستقرار . ولابد ان كل هذا قد تفاعل فى الشعاب والدروب المظلمة من عقلى ، ثم طفا على السطح لا كتفكير ، بل اقتناع .

لقد استقبلتنا مسز بيكر بحفاوة قائلة :

ــ مساء الخير . اننا سعداء برؤياكم . الحقيقة انك اهملتنا مدة يا مارى . ألم يكن هذا اليوم رائعا ، خصوصا حفلة القداس ؟

وقال مستر بيكر :

ــ أننا لانراكم كثيرا . اننى اتذكر جدك الـكابتن هاولى عندما جلس فى نفس هذا المقعد وراح يتحدث عن الأسبان القذرين الذين اغرقوا الأسطول الرئيسى . لقد بلغ من شـــدة انفعاله انه اراق الشاى الذى كان يشربه ، وان لم يكن شايا صرفا ، اذ كان جدك معتادا أن يشرب « الروم » تحت طبقة من الشاى ! انه كان رجلا قوى الشكيمة ، وان عده بعض الناس شديد الخصومة .

هكذا سنحت لى الفرصة للتحدث عن أسرتنا ، فقلت ونحن جلوس حول مائدة الشاى :

ــ مستر بيكر . لسنا فى حاجة الى استعراض الماضى كله وأنت خير من يعرفه . انت تعرف الظروف التى جعلت والدى يفقد ثروة

الأسرة . كنت انا وقتهـــــا احارب مع الجيش فى الخارج . فـكيف حدث هذا ؟ ..
ـ لم يكن يقصد الى ماحدث ، ولـكن تقديراته ...
ـ انا أعرف انه لم يكن موفور الخبرة بأحوال الدنيا . لـكن كيف حدث ما حدث ؟
ـ الحقيقة ان ذلك كان فى فترة استثمارات اتسمت بالمجازفة. وقد جازف فى استثماراته .
ـ ألم يجد من يقدم له النصح ؟
ـ انه وضع أمواله فى العتاد الحربى الذى كان وقتها قد وصل الى درجة التشبع. وعندما الغيت الارتباطات المبرمة ، فقد أمواله.
ـ انك وقتها كنت فى واشنطن . فهل كنت تعلم بأمر الارتباطات التى تقرر الغاؤها ؟
ـ بطريقة عامة فقط .
ـ ولـكن بالدرجة الـكافية التى جعلتك انت لا تستثمر .
ـ لا . لم يحدث هذا .
ـ هل قدمت النصح لأبى بصدد الاستثمارات ؟
ـ كنت فى واشنطن .
ـ لـكنك كنت تعرف انه اقترض الأموال التى استثمرها ، برهن ممتلـكات أسرة هاولى ؟
ـ نعم ، عرفت هـذا .
ـ وهل نصحته بعدم المجازفة ؟
ـ كنت فى واشنطن .
ـ ولـكن بنكك حبس الرهينة .
ـ أنت تعرف يا ايثان ان البنك غير مخير .
ـ نعم اعرف . ومع ذلك فقد كان من المخجل انك لم تستطع تقديم النصح اليه .
ـ لا يجب أن تلومه يا ايثان .
ـ انا لا ألوم بعد أن فهمت الموقف الآن . لـكننى لم أكن أعرف حقيقة ما حدث على وجه التحديد .
اعتقد ان هذا « الهجوم » المفاجىء من ناحيتى قد أفقد مستر بيكر عنصر المبالاة . وراح يفكر فى مباداة جديدة يفتتح بها الحديث، فسعل . وتمخط ، ومسح عينيه ، وصقل نظارته .
وعندما استعد للحديث قلت له :

ـ أنا أعرف انه لا حق لي في أن أطلب منك المساعدة . ولكنك انت نفسك اشرت اكثر من مرة الى موضوع الاتصال الطويل بين العائلتين . واقول بصراحة يامستر بيكر انه لم يكن في نيتي أن انبش الجروح القديمة. انني اريد فقط أن أعيد تأهيل نفسي للمستقبل.
ـ هذه هي الروح المطلوبة يا ايثان . جاء وقت حسبت فيه انك فقدت الروح الأصيلة لأسرة هاولي .
ـ كان ذلك فعلا . أو ربما لم اعمل على تنمية هذه الروح . والآن وقد عرضت أن تمد يد المساعدة ، فمن أين يمكن أن ابدأ ؟
ـ المشكلة هي انك في حاجة الى رأس مال ، لكي تبدأ ..
ـ اعرف هذا . لكن توفر رأس المال ، فمن اين ابدأ ؟
فقال بيكر :
ـ لابد ان هذا الكلام سيبدو مملا للسيدات . وربما كان الأفضل أن ننتقل الى حجرة المكتبة .
فنهضت مسز بيكر قائلة :
ـ كنت على وشك أن اسأل ماري ان تساعدني في اختيار ورق للحائط في غرفة النوم الكبيرة . « العينات » موجودة فوق يا ماري .
وبعد انسحاب السيدتين قال مستر بيكر :
ـ قلت ان مشكلتك هي رأس المال يا ايثان . ان بيتك خلو من الرهون . بامكانك ان ترهنه بقرض .
ـ لايمكن أن أفعل هذا .
ـ بامكاني أن احترم رأيك . لكن هذا هو المورد الوحيد المتاح. ثم هناك مال ماري الذي حدثتني عنه ، هو ليس بالكثير ، لكن ببعض المال يمكنك أن تستزيد من المال .
ـ لا أريد ان أمس مالها . انه ضمانها للمستقبل .
ـ انه حساب مشترك في البنك ، ولا يربح شيئا .
ـ لنقل انني تغلبت على معارضتي . فما الذي عندك من مصادر الاستثمار ؟
فمسح زجاج نظارته بعناية بالغة ، وقال :
ـ ان ما ساقوله لابد أن يبقى محل الكتمان .
ـ بالطبع .
ـ من حسن الحظ انا اعرف انك لا تكثر من الكلام . لم يكن في اسرة هاولي من هو كذلك ، باستثناء والدك . والآن ، انني

اعرف كرجل اعمال ان بلدة « نيو بايتاون » سوف تنمو ، وكل شيء يساعد على نموها . وازدهارها : من ميناء ، وشواطيء ، ومسالك مائية داخلية . وما هو الا ان تبدأ في النمو ، فلن يعوقها شيء . ويتعين على رجل الأعمال أن يساعدها في عملية التنمية .

ــ ويجنى نصيبا من الأرباح .

ــ طبيعي .

ــ ولماذا لم تحدث هذه التنمية في الماضي ؟

ــ اظن انك تعرف السبب : وهم رجال مجلس البلدة المتخلفون. انهم يعوقون كل تقدم .

كان يستهوينى دائما أن أرى كيف ان حوافز الربح تلبس مسوح الغيرة على الصالح العام . وبتجريد مستر بيكر من ظواهر الغيرة على الصالح العام هــذه ، يبدو كما هو في حقيقته ، فهو وقلة مختارة معه ، يظلون يساندون الادارة المالية للبلدة الى أن يتمكنوا من شراء أو السيطرة على كافة المرافق المقبلة ، وعندئذ لايلبثون أن يطيحوا بالمجلس القائم والعمدة الحالى لافساح المجال للتنمية والتقدم ، ثم يتكشف بعد ذلك انهم يستحوذون على كل مصدر يمكن ان تتحقق التنمية عن طريقه . ومن الناحية العاطفية البحتة كان راغبا في اشراكي للاسهام بنصيب يسير ، وان لم يبين لى طبيعة الأعمال واقتصر كلامه على حدود العموميات . ثم ان انتخابات البلدة سوف تجرى في السابع من يوليو ، وعندما يحل هذا الموعد يكون الجماعة التى ترفع شعار التقدم قد سيطرت على كافة مجالات التنمية والتقدم .

قلت له مع ذلك :

ــ لابد أن افكر في هذا ياسيدى ، وما هو سهل لك اعتبره لغزا بالنسبة لى . ثم انه لابد لى من مناقشة المسألة مع مارى.

فقال : في هذه النقطة اراك على خطأ . فالعنصر النسائى لا مجال له في مسائل الأعمال ، فيما أظن .

ــ لكن المال مالها الموروث .

ــ المهم أن تنمى لها المال وتقدمه هدية لها . انهن يفضلن هذه المفاجاة .

ــ ارجو الا ابدو في نظرك يامستر بيكر شخصا جاحدا لفضلك. لابد لى من التفكير . هل سمعت ان مارولو سوف يذهب الى ايطاليا ؟

فبدت فى عينيه نظرة حادة وهو يقول :
ـ نهائيا ؟
ـ لا مجرد زيارة .
ـ حسنا . أرجو أن يتخذ خطوة لتامينك فى حالة حدوث شيء له . انه ليس بالصغير السن ، هل حرر وصيته ؟
ـ لا اعرف .
ـ لو ان بعض اقاربه تدخلوا ، فقد تجد نفسك بلا عمل .
فلجأت الى أسلوب الغموض قائلا :
ـ انك أعطيتني مادة للتفكير. لكنني اتساءل ان كان يمكنك ان تعطيني فكرة صغيرة عن متى تبدأ .
ـ بامكانى أن أقول لك هذا . ان التنمية تتوقف الى حد كبير على المواصلات .
ـ ان الطرق الكبرى آخذة فى الزيادة .
ـ ومع ذلك فالوقت طويل أمامها . ان نوعية الرجال ونوعية الأموال التى نريد اجتذابهم واجتذابها لن يصلوا الا عن طريق الجو.
ـ وليس عندنا مطار ؟
ـ هذا صحيح .
ـ وفضلا عن ذلك فليس عندنا مكان لانشاء مطار دون هدم التلال المحيطة بالبلدة .
ـ وهى عملية باهظة التكاليف .
ـ اذن فما هى خطتك ؟
ـ ايثان . لابد أن تثق بى وتسامحنى . لايمكننى أن أقول لك هذا فى الوقت الحالى . لكننى أعدك اذا امكنك تدبير راس مال ، فاننى ساعمل على وجودك فى طليعة المستفيدين . ان العائلات القديمة لابد أن تتساند وتتكافل .
ـ هل مارولو فى المجموعة ؟
ـ لا بالتأكيد . انه يمضى فى طريقه الخاص مع ابناء جلدته .
ـ انهم يثرون هنا ، أليس كذلك ؟
ـ أكثر من اللازم . اننى لا احب ان ارى هؤلاء الأجانب يزاحمون ويتسللون .
ـ والسابع من يوليو هو الاختبار الحاسم ؟
ـ هل أنا قلت هذا ؟
ـ لا . مجرد تخمين من جانبى .

ـ لابد انه كذلك .
وعند هذا الحد عادت ماري بعد انتهاء مشاورات ورق الحائط.
وعلى الأثر قمنا بواجب الاستئذان وسرنا الهوينا عائدين الى البيت.
ولما سألتني عن نتيجة اللقاء قلت لها :
ـ يريد أن أستخدم مالك كبداية اقوم بها. اما انا فلا اريد هذا.
ـ أنا أعرف انك تفكر في أمري ياعزيزي . لكنني اقول لك انك اذا لم تعمل بنصيحته فانك احمق .
ولما حاولت قالت بعزم :
ـ خذ كلامي هذا يا ايثان : اذا لم تفعل ما يشير به عليك ، فسوف آخذ المال وأسلمه له بيدي .
ثم اضافت فجأة :
ـ هل نسيت ما قاله الطالع ؟
ـ يا الهي ! الطالع مرة اخرى !
ـ أن اعتقادي فيه راسخ .
ـ لو انني ضيعت مالك لكرهتني .
ـ لن أكرهك . انت طالعي ومالي . هذا ما قالته لي مارجي.
وعندما رأتني أعارضها قالت فجأة بلهجة التهكم :
ـ امن أجل الحرص على المال تستكثر علينا المزيد ؟ أليس من حقي أن تكون لنا ستائر جديدة وماء ساخن يكفي لحمام اربعة اشخاص في نفس اليوم وغسل الأطباق به أيضا ؟
ـ ليست المسألة هي هذا يامحبوبتي . انني أخشى العواقب التي تجلبها كثرة المال .
واذا هي تقول بشراسة :
ـ اسمعوا وعوا ! ها هو ذاك بائع في محل بقالة لايملك شيئا ويشغل باله بما سيكون عليه الحال بعد الغنى ! انك تتصرف وكأنك تستطيع تحقيق الثراء في اي وقت تريده ؟
ـ اظن ان هذا بامكاني .
ـ كيف ؟
ـ هذه هي المشكلة .
ـ انت لا تعرف ، والا لفعلت هذا قبل الآن .
هذا مجرد « تهويش » منك . دائما « تهويش » .
وسرنا في ظلام الليل الى البيت دون أن نتبادل كلاما آخر .

الفصل الثامن

بدا لى ذلك مساء أن انهيار دانى تيلور فى الجحر العفن الذى يعيش فيه ، فرأيت شمعة مضاءة فى طبق قرب سريره النقالى ، وكان فى شر حال من الهزال والمرض ، وكان بصخب الا يشعر الانسان بالغثيان لرائحة المكان القذر والرجل القذر. وكان مفتوح العينين جامدهما ، وقد توقعت أن أراه يهذى بالحمى . فكانت صدمة لى أن سمعته يتكلم بوضوح وبالنبرات والأسلوب التى عهدتها فى دانى تيلور .

قال لى : ما الذى تريده يا ايث ؟

ـ أريد مساعدتك . أنت مريض .

ـ هل تظن اننى لا أعرف هذا ؟ اننى أعرف أكثر من أى انسان.

وتحسس خلف الفراش وجاء بزجاجة ويسكى مليئة الى ثلثها ، وقال : أتأخذ جرعة ؟

ـ لا يادانى . هذا ويسكى غال .

ـ عندى أصحاب .

ـ من أعطاك الزجاجة ؟

ـ ليس هذا من شأنك يا ايث .

وتناول جرعة ، فصعد التلون الى وجهى ، وأردف قائلا :

ـ ان صاحبى أراد أن يتكلم فى الأعمال ، لكننى استغفلته . اننى تظاهرت بالاغماء قبل أن يستمر فى الكلام . هل تريد أن تتكلم فى الأعمال يا ايثان ؟ لأنه يمكن أن أشعر بالاغماء مرة ثانية!

ـ هل تشعر بأى احساس من ناحيتى يادانى؟ أى ثقة...أى شعور؟

ـ بالتأكيد . لكن اذا نظرنا فى الأمر فاننى سكير ، ومشاعر السكير كلها فى الخمر .

ـ لو أمكننى أن أدبر المال اللازم ، فهل تقبل أن تتقدم للعلاج؟

والرَوع فى الموضوع انه استحال بسرعة الى طبعه الأصلى، وقال :

ـ يمكن أن أقول اننى أقبل يا ايث . لكنك لا تعرف طبيعة

السكير. انني قد آخذ المال واسكر به عن آخره .
ـ لنفرض انني دفعته مباشرة الى المستشفى او دار العلاج ؟
ـ من السهل أن اذهب مشبعا بكافة النوايا الطيبة ، ثم اخرج بعد ايام قليلة . لايمكنك ان تأتمن سكيرا يا ايث .
ـ الا تريد ان تنقذ نفسك من هذه الحالة ياداني ؟
ـ اظن انني لا اريد .
ثم تناول جرعة اخرى من الزجاجة وقال على اثرها بصفاء غريب:
ـ لقد عرضت ان تقدم اجر علاجي يا ايث . لكنك لا تملك المال اللازم .
ـ بامكاني تدبيره . ان ماري ورثت بعض المال من اخيها .
ـ وتريد ان تعطيني هذا المال ؟
ـ نعم .
ـ حتى برغم قولي لك الا تثق بسكير . حتى برغم تأكيدي لك اني قد آخذ مالك واحطم قلبك ؟
ـ انك تحطم قلبي الآن ياداني .
وخطرت لي فكرة فأضفت قائلا :
ـ هل كان بيكر هو الذي اعطاك زجاجة الويسكي ؟
ـ نعم .
ـ هل اراد ان توقع له على شيء ؟
ـ نعم . لكنني تملصت بالاغماء .
قال هذا ضاحكا ثم رفع الزجاجة الى شفتيه ، فقلت له :
ـ هذا ما اردت أن اقول لك ياداني . هل كان يريد منك أن تبيع له أرض قصر العائلة المهدم في الريف ؟
ـ نعم .
ـ كيف حدث انك لم تبعها حتى الآن ؟
ـ لأنني اظل من الأشراف ، ولا ينقصني الا اخلاقهم .
ـ لا تبع الأرض ياداني . تمسك بها .
ـ وماذا يهمك منها . ولم لا ؟
ـ من أجل كرامتك .
ـ لم تبق لي كرامة . حسب قديم فقط .
ـ على كل حال لا تبع الأرض ياداني . انها ذات قيمة كبيرة. وبيكر يعلم هذا . فهو لايشتري شيئا لا تكون له قيمة .
ـ وما قيمتها المحتملة ؟

ــ انها المكان الوحيد الذى يصلح لاقامة مطـار .
ــ فهمت .
ــ اذا تمسكت ، فيمكن أن تكون هذه بداية جديدة لك يادانى. بامكانك أن تباشر العلاج، وبعد شفائك سوف تجد عشا مليئا بالبيض.
ــ ربما . لـكن الأفضل ان ابيعها وأشرب بثمنها .
ثم أردف بضحكة غريبة :
ــ هل تريد الأرض يا ايثان ؟ هل لهذا سبب جئت الى هنا ؟
ــ اريدك أن تـكون بخير .
ــ أنا بخير .
ــ اسمع يادانى . انت تملك شيئا يريده جماعة من المواطنين بعيدو النظر ويحتاجونه . وقد سمعت أنهم يفكرون فى وضعك فى احدى المصحات لـكى تنال ما تحتاج اليه من علاج .
ــ انهم لا يجسرون على هذا .
ــ بل يستطيعون . ان القاضى يمكنه الحكم بعدم أهليتك لادارة العقار ، وتعيين حارس عليها ، وأستطيع أن اضمن من سيكون. وسوف يكون لـكل هذا تكاليف كثيرة ، وهكذا تباع أرضك لتغطية التكاليف ، ولك أن تخمن من سيكون المشترى .
لمعت عيناه وراح يصغى منفرج الشفتين ، وما لبث أن قال :
ــ انت تحاول تخويفى يا ايث .
ــ لـكننى قلت لك ما سوف يحدث .
ــ اننى أوافقك . لـكن السكير له أيضا قدراته الخاصـــة . بامكانى أن أقاومهم ، وأنا على استعداد لهذا منذ هذه اللحظة .
ــ يا لك من شجاع ! هذا ما أردت ان اسمعه منك .
فنظر الى من فوق عنق زجاجـــة الويسكى كما ينظر من فوق بندقية ، وقال :
ــ هل تقرضنى نقود مارى ؟
ــ نعم .
بغير ضمان ؟
ــ نعم .
ــ مع علمك بأن فرصة استردادها هى بنسبة واحد الى الف ؟
ــ نعم .
ــ هناك شىء قبيح فى السكير يا ايثان . اننى لا أصدقك . هل تضع النقود بين يدى ؟

ـ فى اى وقت تشاء .
فرفع الزجاجة الى شفتيه وشرب منها طويلا . ثم قال وقد زادت عيناه لمعانا وان بدتا باردتين كعيني افعى :
ـ هل يمكنك احضار النقود هذا الأسبوع يا ايث ؟
ـ نعم .
ـ يوم الأربعاء ؟
ـ نعم .
ـ هل معك الآن دولاران ؟
لم يكن معى مصادفة أكثر من هذا القدر ، وكانت نقودا نثرية فاحتواها فى راحة يده الممدودة . وقد عمد الى الزجاجة فأفرغ باقيها ثم القاها على الأرض قائلا :
ـ هل تعرف يا ايث أن العلاج يكلف حوالى الف دولار ؟
ـ ليكن .
ـ هذا مضحك يا ايث. انت تتصور اننى سأقدم أرضى كضمان ، وتراهن فى نفسك على ان شرابا بقيمة الف دولار سوف يقتلنى ، وهكذا يسقط مطار فى حجرك كما تسقط الثمرة .. !
ـ هذا كلام سخيف يادانى . الا يمكنك ان تتصور ان قصدى هو خيرك ؟
ـ لا . ومع ذلك فاننى سأتصرف بطريقتى الخاصــة . اننى اشعر بجفاف ، والزجاجة قد فرغت . سأخرج الآن . والثمن هو الف دولار .
ـ كما تشاء .
ـ والمبلغ بالنقد يوم الأربعاء .
ـ سوف أحضره .
ـ لامكاتبات ، ولا امضاءات ، ولا اى شىء . لا تعتمد يا ايث على الصداقة التى جمعتنا فى الماضى . انا غير مدين لك بأى ولاء ولا ارتباط . وما سوف تناله لن يكون أكثر من ضحكة من الأعماق.
ـ كل ما أطلبه منك هو أن تحاول .
ـ اعلك بهذا يا ايث . لـكن آمل أن اكون اقنعتك ماهو وعد السكير. ما عليك الا احضار النقود . ولك أن تبقى الآن ماشئت ، فان بيتى هو بيتك . انا خارج الآن . اراك يوم الأربعاء يا ايث.
وانحدر من الفراش وسار الى الخارج مترنحا متطاوحا .
لبثت مكانى برهة أراقب ذوب الشمعة وهو يتساقط فى الطبق.

كنت واثقا ان فى ذلك « الحطام » شيئا يبرر الآمال التى تعلقت لانتشال دانى تيلور من وهدته . وبعد فترة موحشـــة أطفـــات الشمعة وعدت الى بيتى .

كانت مارى نائمة وقد أفتر ثغرها عن ابتسامة هانئة . وعندما تسللت الى جانبها فى الفراش افاقت وقالت :

ــ اظن انك جوعان .

ــ نعم يانور عينى .

ــ وماذا تريد ؟

ــ شطائر بها بصل .

ــ سأعد لك ولى شطيرتين .

وهبطت الى المطبخ ثم عادت بعد قليل ومعها الشطيرتان وكوبا لبن . فقلت بين المضغ والشرب :

ــ أريد الف دولار .

ــ هل المسألة تتعلق بشىء قاله لك مستر بيكر ؟

ــ الى حد ما . ولـكنها مسالة ستبقى سرية .

ــ لابأس . اكتب الشيك .

ــ لا ياحبيبتى . أريد منك المبلغ نقدا . ولك أن تدعى فى البنك انك سوف تشترين اثاثا او سجادا جديدا أو أى شىء .

ــ ومتى تريد المبلغ ؟

ــ غدا .

ــ ان هذه البصلة حامية . ان رائحتى ستفوح كريهة .

ــ أنت محبوبتى دائما .

ــ لايمكنى أن أنسى حكاية مارولو وحضوره الينا بكيس الحلوى .

ــ لله فى خلقه شئون .. !

ــ هل ستعود الى الهذر ؟ هيا بنا ننام .

لكن النوم كان مستعصيا . وظلت البقع الحمراء تسبح امام عينى .

رحت أسائل نفسى : الآن وقد وطنت النفس على تغيير طريقى ، فهل استطيع وقف العجلة عن الدوران الى الغاية المنشودة ؟ شعرت ان هذا ممكن ، لـكننى قدرت اننى لا أريد .

وفى استعراضى للأحداث كانت تتكشف لى تفصيلات لم افطن اليها وقتها . ان مارى على حق فى استغرابها لزيارة مارولو . اننى رايت فى هذا بادرة للشكر على اننى لم أخن عهد الأمانة والصدق . لـكن تساؤل مارى جعلنى أعيد التفكير حتى بدت لى زاوية فاتتنى

فى حينها . ان ماربوللو لم يكافئنى عن شىء مضى ، ولـكنه جاء « يرشونى » عن أشـيـاء قادمة . انه لايهتم بى الا من حيث أن اكون نافعا له . ولابد انه يريد شيئا منى أو يحتاج الى شىء . وبوسعى ان اكتشف هذا . فلو اننى سألته شيئا كان يرفضـه عادة ثم أجابنى اليه ، اذن لتهيأ لى أن أعرف انه واقع فى ورطة شديدة .

وفى ابان هذه الخواطر سمعت فجأة صرير درجات السـلالم الخشبية العتيقة ، وبدا لى ان ايلين لابد أن تكون عادت الى عادتها السابقة من السير أثناء نومها .

اننى أحب ايلين بالطبع ، لـكنها تخيفنى أحيانا . انها تغار من أخيها ، ويخيل الى أحيانا انها تغار منى .

كانت تمر فى هذه الفترة العسيرة من حياة المراهقات التى يكتنفها الغموض والتى تلوذ فيها البنات بالتكتم والسرية . وهذا مادفعنى الى مراقبة حركاتها عن كثب وملاحظة دوراتها الخفية فى البيت . جيئة وذهابا . كانت مثل قطة ليلية . وقامت عندها عادة المشى اثناء النوم . وعندما سمعت الآن وقع خـطواتها وهى تهبـط السلالم تسللت بهدوء من جانب مارى المستغرقة فى النوم ولبست رداء الحمام واتجهت الى السلالم خفيف الوطء ، ايمانا منى بأن السائر فى نومه ينبغى الا يوقظ بعنف .

كنت أعرف بخبرتى أن الهبوط فى سلالم بيتنا من ناحية الحائط لايحدث صريرا . وهكذا هبطت دون أن يسمع لوقع قدمى صرير . وكان الظلام سائدا الا من انعكاس ضوء مصباح الشارع ، وذلك الوهج النورانى الذى بدا لى أنه ينبعث من رداء ايلين الأبيض حتى بدا فى الظلام كهالة تحف بها .

لقد وقع نظرى عليها واقفة أمام الدولاب الزجاجى الواجهة الذى نحتفظ فيه بمخلفات تاريخ الأسرة التى كدسها أجدادى من رحلاتهم الطويلة فى سفن صيد الحيتان عبر بحار العالم .

كنت أعد هذا الدولاب مكانا مقدسا أعتز بذخائره ، وعلى الأخص ذلك الحجر المكور نصف الشفاف الذى يبلغ محيطه اربع بوصات وبوصة ونصفا عند قمته المستديرة . وكان لهذا الحجر خاصـية غريبة : فهو يبدو وكأنه كائن حى ، وملمسه به طراوة يسـيرة كاللحم ، حتى كانت تنبعث منه دائما حرارة عقب الملامسة .

كان هذا الحجر السحرى العجيب الذى جاء به أجـدادى من

الصين معدودا لدى الأسرة « تعويذة الحظ » التي يتفاءل بها كل انسان . وكان للدولاب قفل نحاسي عتيق به مفتاح نحاسي مربع يترك دائما فى القفل .

والآن قـــد وقع نظرى على ابنتى النائمة ممسكة بالحجر بين يديها تداعبه بأصابعها وتدلله كأنما هو كائن حى وتضمه الى صدرها الصغير وتضعه على خدها وتهدهده كجرو وتشدو باغنية خافتة تشف عن الحنين والبهجة . وكانت فى ابنتى احيانا نزعة مدمرة حتى خشيت أول الأمر أن تتجه الى تحطيم الحجر السحرى أو تعمل على اخفائه فى مكان بعيـــــد ، بيد أننى رأيتها الآن كأم ، وعاشقة ، وطفلة ، اجتمعن بين جوانحها .

لقد خفت أن افزعها اذا ايقظتها . لـكنى مالي اتدخل ؟ لم يكن هذا كابوسا مليئا بالألم او الخوف ، بل كان شيئا اقرب الى المسرة والاندماج فيما لايدركه العقل الواعى ، فلماذا افسد عليها هـــذه المشاعر؟ هكذا ابتعدت بهدوء وجلست فى مقعدى الـكبير انتظر .

وبعد فترة أعادت ايلين التعويذة الى مكانها واغلقت البـــاب الزجاجى وأدارت المفتاح فى القفل . ثم استدارت ومرت بمقعـدى وانشأت تصعد الدرج .

وانتظرت برهة ثم تبعتها ، فوجدتها فى فراشها نائمة والغطـاء فوقها محكما ، وكانت تتنفس بهدوء من خلال فمها وبدا محياها كمحيا طفل نائم .

تملـكتنى وقتئـــذ رغبة جامحة ، فهبطت السلالم مرة أخرى وفتحت الدولاب الزجاجى واخذت الحجر السحرى بين يدى .

وجدته دافئا من أثر امساك ايلين به. وعندما اجريت أصابعى حوله شعرت براحة . وايقنت ان هذا الاحساس جعلنى قريبا من ايلين .

ترى هل كان ذلك ايضا احساس ايلين ، ابنتى ، سليلة أسرة هاولى ؟

الفصل التاسع

جاء الربيع يوم الاثنين غادرا ، فقد أمطرت السماء فجأة ، وهبت الريح متقطعة لافحة .

وعندما ذهبت لفتح محل البقالة وجدت جو مورفى صراف البنك دقيقا فى موعده ، وقد ابتدرنى قائلا :

ـ سمعت انك كنت فى بيت رئيسى .

ـ انني كنت فى حاجة الى مشورته . وقد دعانى الى فنجان شاى .

ـ الظاهر انها مسألة استثمارات .

ـ ان مارى تريد بعض الأثاث الجديد . وعندما تريد المرأة شيئا فانها تصوره أول الأمر فى صورة الاستثمار المفيد .

ـ قل لى . سمعت ان رئيسك سوف يقوم برحـــلة الى بلاده فى ايطاليا .

ـ لا أعرف . من الغريب انه لم يقم بمثل هذه الرحلة قبل الآن .

ـ ما رأيك فى فنجان قهوة عند « فورماستر » ؟

ـ يجب أن أقوم بالـكنس . سوف يكون العمل كثيرا بعد عطلة الفصح .

ـ آه ، هيا بنا ، الدنيا بخير . ان الصديق الشخصى لمستر بيكر لابد أن يتسع له الوقت لشرب فنجان قهوة .

لم يبد كلامه غمزا ولا تعريضا . اذ كانت لديه القـــدرة على ازجاء الـكلام بلهجة البراءة وحسن القصد .

وعندما استقر بنا الجلوس فى مطعم ومقهى فورماستر قال جو مورفى بين رشفات القهوة مستأنفا كلامه عن مارولو .

ـ لا أعرف كيف خطرت لى هذه الفكرة التى جعلتنى أتساءل عن سر رحلة رئيسك المزمعة . ربما كان السبب هو قوله انه جاء الى هذه البـــلاد منذ أربعين سنة . فى ظنى انه جاء منذ ٣٥ أو ٣٧ سنة . لـكن ليس منذ ٤٠ سنة .

ـ اعتقد انه من الصعب ان اجاريك فى أفكارك .

ـ يعني ان ذلك كان سنة ١٩٢٠ . وفى سنة ١٩٢١ صدر اول قانون للهجرة .
ـ وماذا ؟
ـ فى سنة ١٩٢٠ ممكن وصوله . فى سنة ١٩٢١ غير ممكن .
ـ وماذا ؟
ـ عقلى يقول لى انه دخل البلاد بعد سنة ١٩٢١ من البـــاب الخلفى . وعلى هـــذا لايمكن أن يعود الى ايطاليا لأنه ليس لديه جواز سفر يمكنه من العودة الى هنا .
ـ رباه ! الحمد لله انه ليس لى تفكير اهل البنوك !..
ـ لو كنت منهم لـكنت أحسن منى . فأنا كثير الـكلام ! لوعاد صاحبنا مارولو الى هذه البلاد لـكنت ساذجا يشار اليه بالبنان . انتظر . سأقوم معك . القهوة على حسابى .
وعاد مورفى يقول لى ونحن نعبر الشارع :
ـ لا تقل لرئيسك الأفخم انني ألمحت لك انه سوف يكون «طعما» مغريا لادارة الجوازات والهجرة .
ـ ولم أفعل هذا ؟
ولما وصلنا الى الحارة أخرج مفتاح الباب الخلفى للبنك قائلا :
ـ لنستعد الآن لفتح المعبد المقدس .
فقلت له :
ـ أراك اليوم ياجو مليئا بالغرائب . ان عيد الفصح لم يؤثر فى طباعك .
ـ انني اعنى ما أقول . فى تمام التاسعة بالدقيقة نقف عاريى الرءوس أمام باب المعبد المقدس . وعندئذ يدار القفل السرى ويركع الـكاهن بيكر أمام الخزانة ويفتحها ، ثم ننحنى جميعا فى خشوع أمام المعبود العظيم : البنكنوت .
ـ انت مخبول ياجو .
ـ ربما . لعنة الله على هذا القفل . أسهل للانسان أن يفتحه بمفك لا بمفتاحه هذا .
وعالج ادارة المفتاح فى القفل مرات ثم رفسه مرات حتى انفتح اخيرا بعنف . واخرج من جيبه قطعة من الورق المقوى وحشرها فى ثقب القفل . فكدت أن أقول له أليس فى هـــذا خطورة ، لـكنه استبقنى الى الرد قائلا :
ـ ان هذا القفل الملعون لا يغلق بسهولة . وبالطبع فان بيكر

يتأكد بنفسه بعد فتح الخزانة . لا تذكر شكوكى لماروللو ، فهو انسان حقود .
ـ حسنا ياجو . سأفعل كما قلت .
وتحولت الى باب محل البقالة الخلفى فى الجانب الآخر للحارة .
وفى الداخل بدا المحل متغيرا وجديدا فى نظرى . ولم لا ، اذا تغيرت النظرة الى شىء بدا جديدا فعلا .
كان صمام « السيفون » فى « التواليت » الصغير مختلا ، ولهذا كان ينبعث منه صوت هسيس خفيف مستمر ، ولم يهتم ماروللو بتغيير الصمام لأن استهلاك المياه لم يكن مقننا . وعندئذ ذهبت الى الميزان العتيق وجئت منه بصنجة مثقوبة زنة رطلين وعلقتها فى سلسلة « السيفون » ، فتدفق الماء فى « التواليت » بقوة واستمر يتدفق . ولما يممت شطر الباب الأمامى لكى أنصت سمعت الصوت واضحا لاشك فيه . كان صوتا لا تخطئه الأذن . وبعد أعدت الصنجة الى مكانها من الميزان وجلست الى مكانى خلف المنصة .
واسترعى نظرى بين المعلبات قناع الفأر ميكى ماوس يبتسم من فوق علبة الحبوب ، فتذكرت وعدى لابنى آلان ، ومددت الحامل الى الرف وأنزلت علبة الحبوب ووضعتها تحت سترتى فى المخزن . ولما عدت الى مكانى خلف المنصة كان الفأر التالى يبتسم لى من فوق علبته.
ومدت يدى خلف المعلبات واخرجت كيس « الفكة » الصغيرة ووزعتها فى أدراجها الصغيرة فى مسجلة النقد . وعندئذ تذكرت شيئا آخر ، فمددت يدى الى مسافة أقصى حتى عثرت على المسدس العتيق عيار٣٨ الذى ظل فى موضعه هذا منذ عهد طويل. ولما فتحته وجدت الرصاص مخضرا من الصدأ . وكانت خزانته بطيئة تتحرك بصعوبة . فوضعت السلاح الكريه وربما الخطر فى الدرج أسفل مسجلة النقد ، ثم جذبت « مريلة » نظيفة ولففتها حول وسطى وربطت أطرافها .
الا ما أعجب تصاريف الأيام . من منا لم يفكر فيها ويتساءل ان كانت الأحداث التى تعرض لنا وليدة مخطط مرسوم أم هى من ثمار تصوراتنا واحلام اليقظة التى تعرض لنا ؟ لكننى أعلم اليقين منذ متى بدأت ألعب لعبة التصورات لأننى أعرف كيف بدأت بما سمعته من جو مورفى عن الشروط التى يراها لنجاح عملية سرقة بنك . منذ تلك اللحظة لم انقطع عن استعادة هذه الكلمات بما هو أقرب الى السرور الصبيانى . وكانت اللعبة تمضى متوازية مع مجرى

العمل فى المحل ، وكل ما كان يحدث بدا وكأنه تأكيد لواقعهـا : « التواليت » الذى يتسرب منه الماء ، وقناع الفأر ميكى ماوس الذى طلبه الآن ، وكيفية فتح خزانة البنك ، وقطعة الورق المحشورة فى قفل باب البنك الخلفى فى الحارة ... كانت اللعبة تنمو وتتضخم بمضى الوقت ، ولـكنها ظلت مع ذلك فى نطاق التخيل حتى صبـاح اليوم . فكان وضع الصنجة فى سلسلة « السيفون » هو أول اسهام مادى فى اللعبة ، وكان اخراج المسدس القديم هو الاسهام الثانى . وبدأت الآن أفكر فى توقيت العملية . وهكذا اكتسبت اللعبة الطابع الدقيق المحدد .

اننى مازلت أحمل ساعة أبى الأثرية ذات العقارب الغليظة والأرقام الـكبيرة السوداء ، وهى ساعة عجيبة تبين الوقت بدقة . وفى صباح اليوم وضعتها فى جيب قميصى قبل ان ابدأ كنس المحل . وقـد راجعت الوقت بدقة ، فما كادت الساعة تؤذن بالتاسعة الا خمس دقائق حتى فتحت ابواب المحل الأمامية وأخذت اضرب بالمـكنسة أولى الضربات على الرصيف لازالة ماتراكم من قاذورات خـلال عطلة العيد .

ان بنكنا مؤسسة عجيبة حقا ، مثل ساعة أبى! ففى تمام التاسعة الا خمس دقائق ظهر مستر بيكر قادما من شارع ايلم . ولابد ان موظفى البنك هارى روبين واديث آلدن كانا يراقبان حضوره . فقـد أسرعا بالخروج من مطعم ومقهى فورماستر وانضما اليه فى منتصف الطريق .

قلت : صباح الخير يامستر بيكر . صـباح الخير يا اديث . صباح الخير ياهارى .

فرد على قائلا :

ــ صباح الخير يا ايثان . انت محتاج الى خرطوم لتنظيف هذا المحصول !

ودخل ثلاثتهم الى البنك .

أسندت المـكنسة فى مدخل المحل ، وأخذت الصنجة من الميزان ، وذهبت الى ما خلف مسجلة النقد وفتحت الدرج وبدأت سلسلة سريعة من الحركات التمثيلية الصامتة . فسرت الى المخزن ، وعلقت الصنجة فى سلسلة « التواليت » ، ورفعت طرف « المريلة » وعلقتها فى حزام الوسط ، ولبست معطفى الواقى من المطر ، ثم سرت الى الباب الخلفى وواربته . وما أن انطبق عقرب ساعتى الأسود على

رقم ١٢ حتى بدأ جرس مبنى المطافىء يرن مدويا مؤذنا بتمام الساعة التاسعة . فجعلت أحصى فى ذهنى ثمانى خطوات عبـــر الحارة ثم عشرين خطوة . وحركت يدى ولـكن لم أحرك شفتى ، وسمحت بمرور عشر ثوان ثم حركت يدى مرة أخرى . كل هذا كنت أتمثله فى ذهنى : عشرون خطوة ، ثم ثمانى خطوات ، كلها سريعة قاصدة ، وبعد ذلك أغلقت باب الحارة ، وخلعت معطفى ، وعدلت «المريلة» ، ودخلت « التواليت » ، ورفعت الصنجة من السلسـلـــة وأوقفت تدفق الماء ، ثم عدت الى خلف مسجلة النقد ، وفتحت الدرج ، وفتحت العلبة التى أضع فيها قبعتى ثم أغلقتها وحزمتها بالرباط ، ثم عدت الى المدخل ، وأخذت المكنسة ، ونظرت الى الساعة : رأيتها جاوزت التاسعة بدقيقتين وعشرين ثانية ... نتيجة طيبة... لـكن مع تكرار العملية والتمرين يمكن اختصار الفترة الى أقل من دقيقتين .

وما كدت أفرغ من كنس نصف الرصيف حتى جاء ستونى رئيس نقطة البوليس خارجا من مطعم ومقهى فورماستر . وقد قال لى :

ــ صباح الخير يا ايثان . أريد نصف رطل زبدة ، ورطل لحم مقدد ، وزجاجة لبن ، وعشر بيضات . ان زوجتى خلت من كل شىء.

ــ حاضر . كيف حال الدنيا ؟

فأجاب وأنا أعد له المطلوب :

ــ بخير . جئت منذ دقيقة ولـكن سمعتك فى « التواليت » .

ــ سيمضى أسبوع قبل أن أتخلص من كل ذلك البيض المسلوق الذى أكلناه فى العيد .

ــ هذه هى الحقيقة . ومع ذلك لابد للانسان أن يأكل ليعيش .

كانت هذه النتيجة طيبة .

وقبل أن ينصرف قال لى :

ــ ما أخبار صاحبك دانى تيلور ؟

ــ لا أعرف . هل ارتكب مخالفة ؟

ــ لا . انه بدا فى حالة طيبة ، وكان نظيفا بصورة معقولة. كنت جالسا فى سيارة « الدورية » ، فطلب منى أن أشهد على توقيعه .

ــ عن أى شىء ؟

ــ لا أعرف . كانت معه ورقتان ، ولـكنه قلبهما لـكيلا أرى ما هما .

ــ ورقتان ؟

ــ نعم . وقد أمضى مرتين ، وشهدت على أمضائه مرتين .
ــ هل كان صاحيا ؟
ــ بدا كذلك . وكان محلوق الشعر وعليه ربطة عنق .
ــ ليتنى كنت أستطيع أن أصدق هذا !
ــ وأنا مثلك . مسكين . ربما كانت هذه محاولة للانصلاح . لابد أن أعود الآن الى البيت .

وبعد انصرافه أتممت الجزء الأكبر من عملية الكنس وأنا أشعر بالضيق .

ربما كانت المحاولة الأولى هى الأصعب .

لم ينقطع « الزبائن » عن الحضور أفرادا وجماعات .

وحوالى الساعة العاشرة جاء ماروللو ، ومن عجب أنه مد يد المساعدة وأخذ يزن ويغلف ويدق مسجلة النقد . أنه لم يفعل هذا منذ فترة طويلة . وخيل الى انه كان نهبا للقلق وأخذ يتأملنى خلسة كلما ادرت نظرى عنه . وحسبت ان هذا ربما كان من تأثير رفضى لعملية الرشوة . هكذا بعض النـــاس . اذا اريتهم أمانتك ذهبوا يستقصون فيك خوافى الخيانة التى حدت بك الى مســلوك مسلك الأمانة ! ان هذه الفكرة أضحكتنى فى نفسى ، لـكننى لم أبد ادنى بادرة ظاهرية .

وحوالى الساعة الحادية عشرة جاءت زوجتى مارى وهى تتلألأ فى فستان قطنى جديد ملون . وقد بدت جميلة سعيدة ولـكنها كانت تلهث كما لو كانت قد فعلت شيئا سارا ولـكن خطرا . وهى قد فعلت هذا حقا . فانها اعطتنى مظروفا بنيا من ورق مانيلا السميك . وقالت لى :

ــ أظن أنك ستحتاج الى هـــذا .

ورمت مارولو بابتسامة عابرة . انها لم تكن تحبه أو تثق فيه وربما كان هذا لأن الزوجة لا تحب رئيس زوجهـــا أو سكرتيرته الخاصة !

قلت لها :

ــ اشكرك . انت بعيدة النظر . آسف اذ لايمكننى أن أذهب معك فى نزهة فى الليـــل !
ــ انت مشغول فعلا .
ــ حسنا . ألم يخل البيت من كل شيء ؟
ــ صدقت . معى كشف باللوازم . هلا أحضرتها معك فى المساء ؟

اعرف انك مشغول جدا ولا يمكنك تجهيزها الآن .
ـ لكن لا تطلبى شيئا من البيض المسلوق .
ـ ابدا ياعزيزى . لسنة كاملة . بالمناسبة . مارجى تريد أخذنا للعشاء فى مطعم فورماستر الليلة . قالت أنها لم تدعنا قبل ذلك .
ـ جميـل .
ـ قالت ان شقتها ضيقة جدا .
ـ صحيح ؟
ـ اننى أعطلك عن العمل .
كانت نظرات مارولو مسلطة على المظـروف البنى فى يدى لم تفارقه لحظة ، فوضعته خلف « المريلة » ودسسته فى جيبى . كان يعلم انه مظروف بنوك ، وكان بوسعي ان اشعر ان عقـله ذهب يستقصي وينبش مثل كلب يتصيد الفئران فى مستودع قمامة .
وبعد انصراف مارى تزايدت حركة البيع . واطل مستر بيكر برأسه ولما رأى الصف الطويل المنتظر للدور خرج قائلا :
ـ سأمر فيما بعد .
ولم تتوقف حركة العمل الا فى فترة الظهر ، عندما انصرف الناس كلهم الى تناول وجبة الغداء الخفيفة ، وتوقفت حركة المرور . وعندئذ اخذت اشرب بقية زجاجة اللبن التى كنت فتحتها . ان كل شيء كنت آخذه من المحل لى او للبيت كنت ادونه فى الحساب ثم اخصمه من اجرى . وكان مارولو يسمح لى بأن احصل على لوازمى بسعر الجملة . وهذا فارق كبير . وأظن اننى ما كنت أستطيع العيش بأجرى لو لم يفعل ذلك .
قلت له وقد جلست متكئا على المنصة :
ـ اشكرك للمساعدة . اننى لم ار ابدا مثل هذه الحركة .
ـ انت فتى طيب . وهم يحبونك .
ثم بدا لى ان اقوم بجس النبض ، فقلت :
ـ أراهن انك تتطلع الى شمس جزيرة صقلية . اننى كنت هناك فى زمن الحرب .
فاشاح عنى قائلا :
ـ اننى لم اقرر بعد . فقد تغيبت طويلا اربعين سنة . ولا اعرف احدا هناك .
ـ ليتنى كنت استطيع ان انال اجازة فى ايطاليا ـ بغير بندقية

ولا ملابس ميدان . ان اربعين سنة مدة طويلة فعـــلا . فى اى سنة جئت ؟

ــ ١٩٢٠ ... مدة طويلة .

بدا ان جو موريق اصاب كبد الحقيقة ، وربما كان رجال البنوك والشرطة والجمارك هم أصدق الناس غريزة .

ثم خطر لى ان أقوم بعملية جس نبض اخرى أعمق . ففتحت الدرج واخرجت المسدس والقيته على المنصـــة . فوضع ماروللو يديه خلف ظهره قائلا :

ــ ما هذا يا فتى ؟

ــ خطر لى انك ربما تريد استخراج ترخيص بهذا ان لم يكن له ترخيص . ان قانون احراز الأسلحة صارم .

ــ من اين لك به ؟

ــ انه كان هنا طول الوقت .

ــ انني لم اره أبدا . انه لايخصنى . انه يخصك .

ــ لايخصني . وانا ايضا لم اره من قبل . ونظرا لوجوده هنا ، ألا ترى ان الأفضل هو الحصول على ترخيص ؟

ــ قلت لك اننى لم اره أبدا . اننى لا احب الأسلحة .

ــ هذا مضحك.كنت أظن ان رجال المافيا الكبار يحبون الأسلحة.

ــ ما قصدك ؟

فتظاهرت بضحكة رنانة بريئة قائلا :

ــ كنت اسمع ان جميع ابناء صقلية هم من المافيا .

ــ كلام مجانين ... انا لا اعرف حتى ما هى المافيا ؟

فاعدت المسدس الى الدرج وقلت :

ــ من يعش يرى . على كل حال ربما أقدمه الى ستونى واقول له انني وجدته متروكا خلف اى شيء ، وهذا ما حدث فعلا .

ــ افعل هـــذا . انى لم اره فى حياتى . ولا اريده . وهو لايخصنى .

ــ حسنا . ليكن ما تقول .

هكذا زرعت الخوف فى نفس رئيسي . فان استخراج ترخيص باحراز سلاح يتطلب اجراءات مطولة ــ تماما مثل اجراءات استخراج جواز سفر .

مهما يكن فقد تمالك مارولو . وعاد يقول :

ــ انت فتى طيب . وصديق مخلص أيضا .

ـ هذا ما كان يقوله جدى الاكبر ، الكابتن هاولى .
ـ انني امضيت طول يوم الاحد افكر .
كنت اعلم انه قلق بصدد مسألة « الخمسة فى المائة » ، فواجهته بها فورا اختصارا للوقت .
ـ تقصد حكاية الخمسة فى المائة ؟
فنظر الى باعجاب قائلا :
ـ نعم . انت ذكى ايضا .
ـ لست من الذكاء مع ذلك بحيث اشتغل لحسابى .
ـ انك عملت هنا مدة طويلة ـ ١٢ سنة .
ـ صحيح. مدة طويلة. وهى كافية لحدوث تغيير ، الا ترى هذا ؟
ـ وانت لم تختلس شيئا من « الفكة » ، ولم تأخذ معك لوازم البيت دون تقييدها فى الحساب .
ـ ان الامانة فى طبعى .
ـ لا تمزح . اننى اقوم بالمراجعة ، واعرف .
ـ يمكنك ان تعلق « ميدالية » على صدرى .
ـ كل الناس تسرق ـ بعضهم اكثر وبعضهم اقل . لكن انت لا.
ـ ربما كنت انتظر لكى اسرق « البضاعة » كلها !
ـ لا تمزح . ان ما اقوله هو الحقيقة .
ـ الفيو . عندك جوهرة . فلا تدعها كثيرا ، والا انكشف زيفها.
ـ لماذا لا تشاركنى فى المحل ؟
ـ بأى شىء ؟ بماهيتى ؟
ـ سندبر هذا بطريقة ما .
ـ وعندئذ لايمكننى ان اسرق منك دون ان اسرق نفسى !
فضحك تقديرا ، وقال :
ـ انت غاية فى الذكاء يافتى . لكنك مع ذلك لا تسرق .
ـ ان كنت تعنى ما تقول ، فعليك ان تفكر فى طريقة اتمكن بها من المشاركة ، وسابحث المسألة . لكننى احذرك ـ فاننى لا املك مالا .
ـ سندبر هذه المسألة .
ـ لكن سوف يكون لى مال فيها بعد .
سلط نظراته على طويلا ، وقال بصوت خافت :
ـ كلا ! كلا ! على كل حال انت ولد طيب .
وهز يدى مصافحا ثم خرج على الاثر .

على انه عاد ثانية وقال بانفعال :
ــ لك ان تأخذ ذلك المبلغ .
ــ اى مبلغ ؟
ــ الخمسة فى المائة .
ــ لماذا ؟
ــ لك ان تأخذه . يمكنك ان تشاركنى فى المحل بمبالغ صغيرة ، فقط عليك ان تطالب بستة فى المائة .
ــ لا .
ــ ماذا تقصد بقول لا ، اذا كنت انا اقول نعم ؟
ــ لست فى حاجة اليه يا الفيو . لو كنت فى حاجة اليه لأخذته ، لكننى فى غير حاجة .
فزفر من أعماقه .
لم يكن العمل متواصلا فى فترة المساء كما كان فى الصباح. وفى فترة الركود فيما بين الثالثة والرابعة جاء مستر بيكر. وقد انتظر برهة حتى انصرف آخر « زبون » ، وقال لى :
ــ هل عرفت يا ايثان ان مارى سحبت الف دولار ؟
ــ نعم ياسيدى . قالت لى انها ستفعل ذلك .
ــ هل تعرف لماذا تريد المبلغ ؟
ــ بالتأكيد ياسيدى . انها كانت تتكلم عن هذا منذ شهر . انت تعرف النساء . تجديد الأثاث دائما .
ــ الا تظن ان من البلاهة صرف المبلغ فى هذا ؟ قلت لك أمس انه سيفتح الباب لشىء .
ــ هذا مالها ياسيدى .
ــ لم أكن أكلمك عن بعشرة المال يا ايثان . كنت أكلمك عن استثمار مضمون . فى رأيى انه بالألف دولار هذه يمكنها تجديد الأثاث فى خلال سنة مع بقاء الألف دولار كما هى .
ــ لايمكننى يامستر بيكر منعها من انفاق مالها الخاص .
ــ ألا يمكنك اقناعها يا ايثان ؟
ــ لم يخطر هذا ببالى .
ــ حاول يا ايثان أن تجعلها تعيد ايداع المبلغ فى البنك . أو قل لها أن تضع المبلغ فى يدى . انها لن تندم على هذا أبدا .
ــ انه مال آل اليها من أخيها ياسيدى .
ــ أعرف هذا ، انك تخيب ظنى فيك يا ايثان . اذا كنت تريد

أن تكون لك قيمة فلابد ان تكون صاحب الكلمة فى بيتك . وفى الامكان تأجيل شراء الأثاث الجديد فترة اخرى .

ــ بامكانى هذا . لكن ليس بامكانها .

وخطر لى فى هذه اللحظة ان رجال البنوك لهم اعين بها اشعة اكس تكتشف النقود ، وانه ربما كان يرى فى هذه اللحظة المظروف البنى من خلال ملابسى . فأضفت قائلا :

ــ سوف احاول اقناعها يامستر بيكر .

ــ هذا اذا لم تكن انفقت الألف دولار فعلا . هل هى الآن فى البيت ؟ ..

ــ قالت انها ستركب الأتوبيس الى بلدة « ريدجهابتون » .

ــ ياالله السموات! اذن فقد ضاع الألف دولار فى صالات المزادات!

ــ حسنا . لايزال عندها بعض مال آخر .

ــ ليس هذا بيت القصيد . ان أملك الوحيد هو المال .

ــ المال يجلب المال ، كما قلت .

ــ بالضبط . ضع هذا نصب عينيك ، والا بقيت بائعا فى محل بقالة طول عمرك !

ــ أنا آسف لهذا ياسيدى . هل تحب زجاجة « كوكا » ؟

ــ نعم . على بها .

ولم يكن بامكانه أن يشرب من الزجاجة ، فجئت بكوب وافرغتها له ، فشربها كارها وشرب معها غضبته . وقال فى النهاية وهو ينصرف متجها الى بيته :

ــ كلمها واقنعها !

عجبت لمسلكه . ترى هل اهتاج لارتيابه فى الأمر ؟ لم ارجح هذا . اغلب الظن ان اهتياجه كان بسبب عصيان أمره وهو الذى اعتاد ان يأمر فيطاع ، ويبذل النصح للانسان فينصاع !

وقبيل موعد اغلاق المحل اتصلت تليفونيا بمارى وقلت لها :

ــ يانزهة النفوس ! سوف اتاخر قليلا .

ــ لاتنس اننا سنتناول العشاء مع مارجى فى مطعم فورماستر.

ــ انا متذكر .

ــ الى متى تتاخر ؟

ــ من عشر دقائق الى ربع ساعة . سأتمشى الى الميناء للفرجة على مركب تطهير القاع .

ــ لأى سبب ؟

ـ انني افـكر فى شرائها .

ـ لك أن تهزل . لـكن لا تتأخر . فلابد ان تغتســل وتغير ملابسك . مطعم فورماستر كما قلت لك .

ـ لن اتأخر ياحبة قلبي ومهجتي ! ان مستر بيكر حمل على حملة شعواء لأنني تركتك تنفقين الف دولار .

ـ وما دخل هذا التيس العجوز ؟

ـ ماري !.. ماري !.. الجدران لها آذان !

ـ قل له ان يذهب الى حيث !

ـ لن يذهب . وفضلا عن هذا فهو يعتقد انك مغفلة .

ـ ماذا ؟

ـ ... وانني زوج هزيل ـ وأنت تعرفين من انا !

فاطلقت ضحكتها العذبة التي طالما اسكرتني ، وقالت قبل ان تضع السماعة :

ـ اسرع الى البيت ياحبيبي . اسرع !

لم تكن وجهتي الميناء ذاته ، ولـكن كشك داني تيلور المجاور للميناء ... ولما اقتربت منه اخذت أصفر لحنا قديما يعرفه .

كان الـكوخ خاويا ، لـكنني كنت واثقـا انه كان مختبئا بين الحشائش الطويلة أو بين كتل الأخشاب الضخمة التي كانت ملقاة فيما حول المـكان . ولمـا كنت أعرف انه سوف يعود الى الـكوخ حالما انصرف ، فقد اخرجت المظروف البني من جيبي ووضعتـه فوق فراشه القذر ، ثم ابتعدت ومازلت أصفر ، فيما عدا لحظة ناديت فيها بصوت خافت : « الى اللقاء ياداني . حظا سعيدا » .

وتابعت طريقي وأنا أصفر الى الشوارع المطروقة حتى وصلت الى بيتي وبيت آل هاولي .

وجدت ماري بادية الانفعال وهي تستعد لوليمة العشاء فى مطعم فورماستر . ولا أذكر اننا خرجنا يوما للعشاء فى مطعم ، فان هذا ليس فى طاقتنا ، وقد نسينا هذه العادة .

كانت ماري منهمكة فى كي الملابس وفى اصدار مختلف الأوامر والنواهي للأولاد للتصرف فى نطاقها فى فترة غيابنا عن المنزل ، حتى ان الأولاد أنفسهم كانوا يراقبون ما يجري مبهورين .

كنت املك اربع بذلات ـ وهي عدد كاف لبائع فى محل بقالة ، وكانت جميعا مصفوفة على الـكراسي بعد كيها . ولما سألت ماري أيها البس اجابت :

ـ اظن أن الأفضل أن تلبس البذلة « دوريان جراى » ، فالمناسبة رسمية وغير رسمية .
ـ مع ربطة العنق المنقطة ؟
ـ طبعا .
ولكن ايلين تدخلت قائلة :
ـ بابا ! لا تلبس ربطة عنق منقطة ! فانت عجوز .
ـ لست عجوزا . أنا شاب ، ومرح ، وطائش !
ـ سوف تكون مثل اللقلق الضاحك ! الحمد لله اننى لن أشترك فى الوليمة !
ـ وأنا أحمده أيضا . من اين جئت بفكرة اننى لقلق عجوز ؟
ـ لابأس . أنت لست عجوزا ، لكنك عجوز بالنسبة لربطة عنق منقطة .
ـ انت بنت متزمتة ! مارى . هل ترين اننى ساشبه اللقلق الضاحك ؟
ـ دعى اباك وشانه ، فلابد له أن يغتسل . اننى وضعت قميصك على السرير .
وقال آلان :
ـ اننى انجزت نصف موضوع مسابقة « احب أمريكا » .
ـ هذا بديع . لاننى انوى عند دخول الصيف أن اجعلك تشتغل .
ـ اشتغل ؟
ـ فى المحل .
ـ آه !
قالها آلان دون تحمس كبير .
وفى نفس الوقت شهقت ايلين نصف شهقة ، لكنها لم تقل شيئا . فان مارى راحت تكرر للمرة الثمانين الاوامر والنواهى التى يتعين على الاثنين اتباعها فى فترة غيابنا عن البيت .
وبينما كنت منهمكا فى عقد ربطة عنقى دخلت ايلين ووقفت مستندة الى الباب قائلة :
ـ بابا . هل من الغش أن ينقل الانسان شيئا من كتاب ؟
ـ فسرى كلامك .
ـ لوكنت اكتب موضوعا ونقلت من كتاب بعض ما فيه ـ فما رايك فى هذا ؟
ـ لو وضعت اقواسا حول المادة المنقولة وملاحظة فى ذيل

الصفحة تبين من هو المؤلف ، لكان فى هـذا ارتقاء بما تكتبين وسندا له . وفى ظنى ان نصف ما يكتب فى أمريكا هو مقتبسات اذا لم يكن مختارات أدبية . والآن هل أعجبتك ربطة عنقى ؟
ــ لنفرض انك لم تضع هذه الأقواس ...
ــ اذن تكون المسألة سرقة مثل أى نوع آخر من السرقات . لا اظن انك فعلت هذا ؟
ــ لا .
ــ اذن فما هى مشكلتك ؟
ــ هل يمكن أن يزجوا بك فى السجن ؟
ــ ربما ، اذا أخذت نقودا عن الكتابة . لا تفعلى هذا يابنتى. والآن مارايك فى الربطة ؟
ــ اظن ان مظهرك لا يطاق !
ــ قولىلأخيك اننىجئت له بقناع الفار ميكى ماوس ، قبحه الله!
كانت مارى بعد انتهائها جميلة ورائعة . وقـد تأبطت ذراعى مزهوة ونحن نسير فى الشارع تحت الأضواء بخطا ثابتة حتى كنا كفرسى سباق يتقدمان الى الحاجز استعدادا للشوط الكبير.
قلت لمارى :
ــ سوف نخرج كثيرا ياحبيبتى .
ــ متى ؟
ــ عندما نصبح من الأغنياء .
ــ ومتى يكون هـذا ؟
ــ قريبا . وسأعلمك كيف تلبسين الأحـذية .
ــ وهل تشعل سيجارك بأوراق بنكنوت فئة ١٠ دولارات ؟ ..
ــ فئة عشرين .
ــ كم أحبك .
ــ عيب ياسيدتى . لايصح أن تقولى هذا . انك تخجليننى .!
وكانت مارجى فى انتظارنا فى المطعم ، وقـد بدت مضيفة حتى اطراف بنانها . وقدمت الينا صديقا لها من نيويورك يدعى مستر هارتونج ، وكان صورة لأبناء المدن والعواصم بأناقتـه المفرطة ، وزاد عليها تعقيبه على كل شىء بضحكة يعرب بها عن تقديره لما يسمع ، حتى اننى لما قلت له : « ارجو أن تعرف ان صديقتك ساحرة » ــ أطلق أولى ضحكاته .
وقالت مارجى :

ـ انني طلبت تخصيص مائدة لكم بجوار النافذة ، هي التي هناك.
ـ كما انك طلبت وضع زهور خاصة يا مارجي .
ـ ماري . لابد لي أن أفعل اى شيء ردا لطيبتك ومعروفك.
وكانت المائدة جميلة حقا ، وادواتها بيضاء كالفضة وان لم تكن فضة . وقالت مارجي :
ـ أنا المضيفة ، ومعنى هذا انني الرئيسة . وقد امرت بتقديم كئوس « المارتيني » أردتم ام لا .
فضحك مستر هارتوج .
وبعد أن شربنا الكأس الأولى قالت مارجي :
ـ سيشرب كل منا كأسين . ان الطعام هنا ممتاز .
ولما قلت لهم انني فكرت مرة فى فتح « بار » حيث يستطيع الانسان أن يشرب الكأس الثانية دون حرج وحيث أستطيع تكوين ثروة ـ ضحك مستر هارتوج أيضا .
وبتقديم الكأس الثانية بدأ مستر هارتوج يتكلم ، وكان صوته خافتا رخيما متموجا كصوت مغن أو ممثل أو مندوب مبيعات لصنف لايريده الناس ، فقال :
ـ أخبرتني مسز يونج هانت انك تعمل هنا . هذه فى الحقيقة بلدة جميلة بخيرها .
وكنت على وشك أن أحدد له نوع عملى بالضبط عندما تلقفت مارجى الكرة قائلة :
ـ ان مستر هاولى هو القوة القادمة فى هذه الولاية .
ـ كذا ؟ ماهو تخصصك يامستر هاولى ؟
فتولت مارجي البيان قائلة :
ـ كل شيء . كل شيء تماما ، لكن ليس بصورة معروفة للجميع.
رأيت فى عينيها بريق الشراب ، ولما نظرت الى عينى مارى رأيتهما مسطحتين ، فادركت انهما تناولتا كأسا قبل حضورى ، أو هى مرجى على الأقل .
قلت ردا على كلمات مارجى :
ـ ان هذا يوفر على انكار ما قالت .
فعاد مستر هارتوج الى ضحكته ، قائلا :
ـ ان لك زوجة رائعة . وهذا نصف المعركة .
ـ بل هو المعركة كلها .
ـ ايثان ! ستجعله يظن اننا نتقاتل !

ـ آه . هذه هي الحقيقة .
وتجرعت نصف الكاس . فشعرت بالحرارة تتصاعد حتى اذني. وسمعت صوتي يواصل الكلام ، وجعلت انصت الى نفسي من خارج نفسي وانا اقول :
ـ ان مسز مارجي هي ساحرة الشرق .
ـ آه يامو يزى. انهاكانت شريرة. وانا لا احب ان اكون شريرة.
وبدا لى انني ارى من خلال زجاج النافذة الملون الذى يعكس الصور متطاولة داني تيلور يسير على الرصيف . فرايتني اثب واجرى خلفه ، ولكنه اختفى عن نظرى فى حديقة مجاورة ، وسمعتني انادى فى اثره : داني ! داني ! رد الى المبلغ ! « لاتاخذه ياداني ! انه مسمم ! انني سممته ! » ...
وسمعت ضحكة . وكان الضاحك مستر هارتوج . فمسحت الدموع من عيني بفوطتي وقلت افسر لهم :
ـ كان يجب ان اشرب الكاس ، لا اغسل عيني بها . انها تحرقني.
فقالت ماري :
ـ ان عينيك حمراوان تماما .
ولم استطع ان اعود الى رفاق الوليمة ، ولكنني سمعت نفسي اتكلم واحكي قصصا ، وسمعت مارى تضحك ، واذن فلابد انني كنت ظريفا فكها مثيرا للضحك والطرب ، ولكنني لم استطع قط ان اعود الى رفاق الوليمة . واظن ان مارجي عرفت هذا ، فقد ظلت تنظر الى وفى عينيها سؤال خفى ، لعنها الله . انها ساحرة فعلا .
ولا اعرف ما الذى اكلناه . واتذكر انه قدم الينا نبيذ ابيض ، واذن فلابد انه سمك . وجيء لنا بالبراندى . واذن فلابد انني شربت قهوة ... ثم انتهت الوليمة .
وفى خروجنا سبقتنا مارى ومستر هارتوج ، فقالت لى مارجي :
ـ الى اين ذهبت عنا ؟
ـ لا اعرف قصدك .
ـ انك ذهبت بعيدا . كنت معنا بجزء فقط منك .
ـ اغربي عنى يا ساحرة !
ـ كما تشاء ياغر .
وفى طريقنا الى البيت رحت افتش ظلال الحدائق : وتعلقت مارى بذراعي وكانت خطواتها مترنحة ، وقالت :

ـ يالها من مناسبة لطيفة ! انني لم اعرف الطف منها .
ـ كانت لطيفة فعلا .
ـ ان مارجي مضيفة كاملة .
ـ هذا شيء مؤكد .
ـ وانت يا ايثان . كنت اعرف انك ظريف احيانا ، لكنك جعلتنا نضحك طول الوقت . وقال مستر هارتوج انه ضعف من كثرة الضحك .

وفي مدخل بيتنا احتضنت ماري بقوة حتى تأوهت وقالت :
ـ تماسك ! سوف توقظ الأولاد !

كان في نيتي ان انتظر حتى تنام ماري ثم اتسلل خارجا لكي اذهب الى كوخ داني وابحث عنه ، حتى ولو ارسلت البوليس في اثره . لكنني راجعت نفسي . لقد ذهب داني . وتمددت في الظلام وجعلت اراقب البقع الحمراء وهي تسبح أمام عيني الى غير ما نهاية .

الفصل العاشر

ان قاعدة تمبلتون الجوية لا تبعد اكثر من حوالى اربعين ميلا من بلدتنا نيوبايتون ، وهو ما يوازى طيران نحو خمس دقائق بالطائرات النفاثة . ان اسراب هذه البعوضات الفتاكة تسمعنا هديرها بانتظام . وليته كان بوسعى ان اعجب بها بل احبها على طريقة ابنى الآن . ولو كان لها اكثر من غرض واحد فربما منحتها اعجابى وحبى ، ولكن غرضها الأوحد هو القتل والتدمير، وهذا ما شبعت منه الى حد التخمة . انها تخترق حاجزالصوت بهدير قاصف يخيل الى معه كأن الجحيم تفجرت . وعندما تمر بنا ليلا فانها تتخلل احلامى فاستيقظ محزونا مغموما كأن روحى ذاتها قد تقدحت وتصدعت .

وفى بكرة هذا الصباح انطلق سرب منها هادرا مجلجلا حتى استيقظت من نومى منتفضا راعشا . ولبثت ممددا فى الفراش وعرق الخوف يبللنى وانا انصت الى نذر الشر والهلاك هذه وهى تحول متباعدة فى الفضاء . ولم اتمالك ان تصورت كيف ان هذه الرجفة التى عرتنى انما تسرى فى اعماق كل انسان فى هذه الدنيا. وليست هى نفاثات الهلاك فى ذاتها ، بل هوغرضها التدميرى المريع.

ان مشكلة ما اذا تفاقمت واستفحلت ، فان ابناء البشر يحتمون منها بعدم التفكير فيها . لكنها تغوص فى الأعماق وتمتزج بكثير من غيرها من المشاكل والمسائل القائمة فعلا ، وما يخرج من هذا ويبرز الى السطح هو القلق ، والسخط ، والتأثم ، والانبعاث الى عمل شىء ــ اى شىء ــ قبل فوات الأوان . ويخيل الى ان كل انسان تقريبا اراه مضطرب الأعصاب متوتر بالقلق مصطنع للمرح والصخب كأولئك الذين يلتمسون السكر عشية رأس السنة . وما احرى علماء التحليل النفسى الذين يتصدون بالتحليل الى العقد النفسية الفردية ان يتصدوا بالتحليل والتماس العلاج لمشكلات العصر التى تنذر شرورها النووية بالقضاء على البشرية كلها.

وما لبث سرب آخر من النفاثات أن تفجر خلال حاجز الصوت.

لقد مضى علينا ما يقرب من نصف مليون عام حتى أصبحت النار معهودة لدينا ، ثم أقل من خمسة عشر عاماً للتفكير في هذه القوة النفاثة التى هى أشد من النار ضراوة وعنفوانا . فهل تتهيأ لنا الفرصة لاخضاع هذه القوة والافادة منها . واذا كانت قوانين التفكير والمنطق هى قوانين الأشياء ، فهل يمكن ان يحدث الانشطار النووى فى النفس البشرية ؟ وهل هذا ما يعرض لى الآن ، ولنا جميعا ؟ ..

انني اتذكر قصة حكتها لى عمتى ديبورا منذ زمن طويل ، مؤداها انه حدث فى القرن الماضى وهى طفلة صغيرة أشيع ان نهاية العالم سوف تكون فى موعد معين . فقام أبواها بتوزيع كل مايمتلكون فيما عدا ملاءات السرير التى التفوا بها ، وفى الموعد المتنبأ به انطلقوا الى التلال لمواجهة نهاية العالم . ووقف مئات الناس وهم ملتفون بهذه الأغطية يصلون ويرتلون الأناشيد . وعندما حل الليل بهم زادوا صلاة وترتيلا ، فلما اقترب الموعد مرق نجم فى الفضاء فرفع كل انسان عقيرته بالصراخ هلعا . ثم حلت اللحظة المنتظرة ، فاحتبست الأنفاس فى صدور الرجال والنساء والأطفال وهم مدثرون بأغطيتهم البيضاء . لقد جاءت اللحظة ثم انقضت ، واذا هم قد خدعوا فى الفناء المزعوم . وما أن بزغ الفجر حتى تسللوا يهبطون التلال وما منهم الا من ذهب يحاول استرداد ما وزعوه من ملابس ومقتنيات شملت كل ما كان لهم من حطام الدنيا!

فى ظنى اننى لم أسترجع هذه القصة الا بسبب النفاثات ــ تلك التى هى وليدة جهود هائلة وارصدة جبارة من الوقت والمال لتكديس مخزون احتياطى من اسلحة الموت والدمار . فهل ترانا نشعر بأننا قد خدعنا فى الموت لو اننا نبذنا أسلحة الهلاك ولم نستخدمها قط ؟ ان لدينا القدرة على اطلاق الصواريخ فى الفضاء ، ولكننا بغير قدرة على شفاء نوازع الغضب والحقد وبواعث السخط والتذمر والأحزان .

سمعت مارى تستيقظ قائلة :

ــ ايثان . انك تكلم نفسك . ولست أعرف مايدور فى رأسك ولكنه يكاد يسمع . كف عن التفكير يا ايثان .

هكذا نهضت وحلقت ونزلت للافطار .

وعندما ذهبت لفتح باب المحل الخلفى رأيت مظروف البنك

البني مدفوعا تحت الباب . وكان مغلقا. فأخرجت مطواتي وشققته نظرا لسمكه .
وجدت فيه ثلاث ورقات من كراسة مدرسية رخيصة مكتوبة بقلم رصاص . كانت وصية . « لما كنت بكامل قواى العقلية...» — « فانني أقرر ... » — « وانني اقبل ان اسدد الدين برهن »
وكانت الورقتان موقعتين بامضاء داني تيلور . أما الورقة الثالثة فقد تضمنت هذه الكلمات : « عزيزي ايثان — هذا هو ماتريده».
شعرت بتصلب في بشرة وجهي . ولم ألبث أن اغلقت باب المحل الخلفي ببطء كما يغلق الانســـان باب مدفن تحت الأرض . ان الورقتين طويتهما بعناية ووضعتهما في محفظتي . أما الورقة الثالثة فقد فركتها وألقيت بها في «التواليت» وجذبت سلسلة«السيفون» حتى غابت .
لم ألق هذا الصباح خطبتي المعتادة للمعلبات . وانما أخرجت خرطوما وغسلت الرصيف تماما . وبعد هذا نظفت المحل كله ، حتى زواياه التي لم أمسها منذ مدة .
والفيتني اتغنى مرددا :

وبعـــد شـــتاء احزانـــا الذى اكفهر واستطال
جاء الآن صـــــيفنا المشرق بعراض الآمال

الجزء الثاني

الفصل الحادي عشر

نامت بلدة « بايتساون » طويلا حتى تخلفت عن غيرها من البلدان والمواطن . لقد ازدهرت قديما بصيد الحيتان وتزويد « العالم الغربي » بزيت الحيتان للاضاءة . حتى معاهد اكسفورد وكمبريدج كانت تستمد ضوء مصابيحها من زيت هذه البلدة المتقدمة على الشاطيء الأمريكي . ولكن تفجر البترول في بنسلفانيا وغيرها من المناطق ادى الى الاستغناء بالكيروسين عن زيت الحيتان ، وهكذا انكمش هذا المورد الذي قامت عليه حياة « بايتاون » حينا من الزمن ، وزحف العمران على المناطق الجديدة منبثقا من نيويورك الى ما بعدها ، وبقيت البلدة قابعة في اغلال التخلف والجمود . حتى الرجال والقادة الذين تولوا مقاليد امورها سياسيا واقتصاديا وادبيا ناموا على هذه الحقيقة واغمضوا عيونهم عن التغيير اطمئنانا الى توطد مراكزهم وكفالة شئونهم . ظنوا جميعا ـ العمدة ، والمجلس ، والقضاة ، والشرطة ـ انهم في مناصبهم مخلدون . كان العمدة يبيع للادارة حاجتها من أدوات الانشاء والتعمير ، والقضاة يتلاعبون في المخالفات تحيزا لبعض الناس وهم يظنون لطول مارسوا عملياتهم انها غير مجافية للقانون .

ثم جاء الصيف ليوقظ الجميع من سباتهم ويفتح عيونهم فجأة على التغييرات الجديدة التي توشك أن تقض المضاجع وتقوض القديم من اساسه .

وفي أصيل هذا اليوم من أيام شهر يونيو الحارة وقف ايثان في محل البقالة يمارس عمله المعتاد حينما دخل عليه جو مورفي صراف البنك وطلب زجاجة شراب مرطب كما هي عادته ، واضاف قائلا :

ـ الواجب أن تضع في المحل جهاز تقديم المياه الغازية .

فرد ايثان قائلا :

ـ ويكون لي ذراعان اضافيان ، او انقسم الى بائعين . هل

نسيت ياجارى العزيز اننى لا امتلك هذا المحل ؟ ..
ــ يجب أن يكون لك محل . فالناس هنا يعرفونك ، ويحبونك..
ــ ومع هذا فقد كان لى هذا ، ثم أفلست .
ــ كان ذلك لأسباب فنية . وقتها لم تتدرب على شراء سلع طبقا للأصـــول التجارية .
ــ ربما كنت لم أزل كذلك .
ــ هل تعرف يا ايثـــان عيبك ؟ انك مازلت فى حالة « افلاس عقلى » ... تخلص من هـــذه الحالة يا ايثان . تخلص منهـــا ياسليل أسرة هاولى .
ــ اشكرك .
ــ انت تعرف محبتى لك . متى سيذهب مارواللو الى ايطاليا ؟
ــ لم يخبرنى . قل لى ياجو : الى اى درجـــة يعتبر مارواللو من الأغنياء ؟ لـــكن لا . لا تقل . انا أعرف انه مفروض فيـــك عدم افشاء أسرار العملاء .
ــ بامكانى مخالفة بعض اللوائح من اجل صـــديق يا ايثان . يمكننى أن اقول عموما انه يضع اصابعه فى اشياء كثيرة : عقـــار وأرض فضـــاء هناك ، واكشـــاك مبنية على الشاطىء ، ورهون عقـــارية مختلفة .
ــ وكيف عرفت هـــذا ؟ ــ
ــ من خزانة الودائع . انه استأجر عندنا واحدة منها كبيرة . عنده مفتاح لها وعندى الثانى . ولابأس أن اقول اننى تحسست بين الحين والحين . ولـــكنك تلاحظ اننى لم اذكر رصيده المالى.
ــ وانا لم اطلب منك هـــذا .
ــ الحقيقة يا ايثان اننى فكرت كثيرا فى أمرك . ان ما ينقصك هو التصميم والجرأة . ان الفشل هو حالة عقلية . ومتى صممت وقفزت من حفرة التردد واليأس ، فســـوف تجد ان النجاح هو حالة عقلية أيضا .
ــ ليتنى اعرف ما الذى تريده منى ان احاول فعله .
ــ ليتنى اعرف مثلك ، اذن لفعلت هـــذا لنفسى . ان صراف البنك لا يتطاول الى مركز رئيس بنك . اما من يمتلك حفنة من الســـندات فهذا فى مقدوره . اظن اننى احاول أن اقول لك : اخطف اى شىء يمر قربك . فقد لايمر بعد ذلك .
ــ انت فيلسوف ياجو . فيلسوف مالى ؟

ــ عيب الناس انهم يعيشون اغلب حياتهم بين الماضي والحاضر ولا يكرسون مثل ذلك للتفكير في المستقبل . تحضرني دائما عبارة قالها كاتبنا القديم ساتشل بيج : « لا تنظر الى الوراء . فربما كان هناك شيء يلاحقك حتى يسبقك » . لابد لي الآن من العودة الى البنك . ان مستر بيكر ينوى السفر الى نيويورك غدا لبضعة أيام . انه مشغول جدا هذه الأيام .

ــ باى شيء ؟

ــ وكيف عرف ؟ انني اتلقى البريد الوارد وأسلمه . انه تلقى في الفترة الأخيرة مراسلات كثيرة من « الباتي » .

ــ في السياسة ؟ ..

ــ أنا أوزع البريد الداخلي للبنك فقط ، ولا اقرأه . هل العمل عندك قليل هكذا دائما ؟

ــ حوالي الساعة الرابعة فقط . وسوف تشتد الحركة بعد ربع ساعة .

ــ سأراك فيما بعد . لا تنس نصائحي .

وعادت حركة الشراء والبيع الى نشاطها على الأثر . وبعد انتهاء فترة العمل المسائية جمع في كيس كبير لوازم البيت ثم خلع مريلته ولبس سترته وقبعته ، وجلس برهة على المنصة وسرح بصره في المعلبات المتراصة فوق الأرفف قائلا : لا خطب اليوم . سأتذكر فقط كلمات ساتشيل بيج . لابد ان اتعلم الآن الا انظر الى الوراء !

واخرج من محفظته الورقتين المطويتين وجعل لهما مظروفا صغيرا من الورق المشمع ، ثم دس المظروف في ركن خلف محرك الثلاجة واغلق الباب المعدني كما كان .

وبحث تحت مسجلة النقد حتى وجد دليل التليفونات تعلوه الأتربة فوق رف . فبحث فيه عن رقم ادارة الهجرة ، ولما وعاه في ذاكرته قال مخاطبا المعلبات دون ان ينظر اليها : اذا كان كل شيء قانونيا ومستقيما ، فلن يضار أحد .

وخرج ايثان الى باب الحارة واغلقه . وحمل كيس اللوازم المنزلية وعبر الشارع الى مطعم فورماستر الذى كان مزدحما في هذه الفترة بالشاربين ، ولكن كشك التليفون كان خاليا . فاغلق بابه الزجاجي ووضع الكيس على الأرض ونثر النقود الصغيرة على الرف ، ثم ادخل القطعة المطلوبة في الفتحة وادار رقم صفر . وبعد ان رد عليه العامل قال له :

ــ اريد مكالمة الى نيويورك .
ــ حسنا . أدر الرقم من فضلك .
وهذا ما فعله ايثان .



عاد ايثـــان الى بيته حاملا كيس اللوازم المنزلية . واسترعى نظره وهو يجتاز الحديقة الصغيرة طول الحشائش ، فقال لماري بعد أن قبلها :

ــ الحشائش طويلة ياحبيبتي . الا ترين انه يمكن أن يقوم آلان بتقليمها ؟

ــ نحن الآن في فترة الامتحانات ، ومشغولية آخر السنة .

ــ ما هذه الأصوات المزعجة في الغرفة الثانية ؟

ــ هو آلان يتمرن على الالقاء . انه سيشترك في الحفل المدرسي لمناسبة آخر السنة .

ــ معني هذا انني ساضطر الى تقليم الحشائش بنفسي .

ــ انا آسفة ياعزيزي . لـكنك تعرف الظروف . يجب أن تكون لنا جزازة آلية للأعشاب . ان أسرة جونسون عندها آلة مثل هذه يمكن ركوبها .

ــ بل يجب أن يكون لنا بستاني وصبي بستاني . كان جـــدي عنده هذا . وبامكان آلان أن يركب الجزازة اذا أردت ياعزيزتي .

ــ لا تتحامل على الولد . انه لم يتجاوز الرابعـــة عشرة . هم جميعا كذلك ، في هذه السن .

ــ ان الصـــوت النشاز الصادر من الغرفة يثير جنوني . احب أن أعرف ماذا يفعل ؟ ..

ــ الظاهر انك متضايق يا ايثان . ترفق بابنك !

كان آلان يصيح بكلمات مبهمة من خلال قصبة رنانة وضعها على لسانه . فقال له أبوه :

ــ ماذا تفعل بالله ؟ ..

فلفظ آلان القصبة في راحة يده وأجاب قائلا :

ــ هي من علبة حبوب ميكي ماوس . هذه طريقة الـكلام البطني. لابد لي أن أتدرب يا بابا .

فجلس ايثان قائلا :

ــ لحظة معي . ما هي خطتك في الحياة ؟

ــ هيهـــه ؟ ..

ـ يعنى المستقبل . الم يقولوا لك فى المدرسة ؟ ان المستقبل بين يديك .

وفى هذه اللحظة دلفت ايلين الى الغرفة وتكومت مثل قطـــة فوق الأريكة وهى تضحك ضحكة لاذعة ، وقالت :

ـ انه يريد أن يظهر فى التليفزيون .

ـ هناك ولد سنه ١٣ سنة فقط كسب مائة وثلاثين الف دولار فى برنامج للفوازير .

فقالت ايلين : تبين ان العملية فيها تلاعب .

ـ على كل حال لايزال عنده ١٣٠ الف دولار .

فقال ايثان : الجوانب الأخلاقيـــة لا تضايقك ؟

ـ مع ذلك فان المبلغ كبير .

ـ الا ترى ان هذا مخالف للأمانة ؟ ..

ـ كل واحد يفعل هذا .

ـ أرى ان اخلاقك تتفكك . اعتدل فى جلوسك . وهل نسيت كلمة « سيدى » من آداب المحادثة ؟ ..

بدا الانزعاج على الفتى ، ثم اعتـــدل فى جلسته والاستياء باد عليه ، واجاب :

ـ لا ياســـــيدى .

ـ كيف حالك فى المدرســـــــــة ؟ ..

ـ على ما يرام كما اظن .

ـ كنت تكتب موضـــوعا عن كيف تحب امريكا . هل تصميمك على افسادها أوقف هـــذا المشروع ؟ ..

ـ اننى اتممت الموضــــــوع .

ـ حسنا . اود أن اراه .

ـ اننى أرســــــلته .

ـ لابد ان عندك نسخة منه .

ـ لا ياســـــيدى .

ـ افرض انه ضـــــــاع ؟ ..

ـ لم افكر فى هذا يا بابا. انني اتمنى أن اذهب الىالمعسكرات الصـــــيفية مثل كل الأولاد .

ـ ليس هذا فى طاقتنا . ليس كل الأولاد يذهبون ـ قليل منهم فقط .

ـ يا ليت كان عندنا بعض المـــال .

فقال ايثان وهو يتفرس فى وجه ولده :
ـ سأجعل هـــــذا شيئا ممكنا .
ـ ماذا ياسيـــــدى ؟ ..
ـ بامكانى أن أدبر لك عملا فى المحل هـــــذا الصيف .
ـ ما هو هـــــذا العمل ؟ ..
ـ ســوف تحمل وتنظف الرفوف وتكنس ، وربما اذا أفلحت يمكن أن تقدم الطلبات للزبائن ..
ـ أريد أن أذهب الى المعسكرات الصـــيفية .
ـ وتريد أيضا أن تكسب مائة ألف دولار .
ـ ربما أكسب موضوع المسابقة . على الأقل فيهـــا رحلة الى واشنطن . وهي نوع من الاجازة والراحة بعد الســنة بطولها فى المدرســـة .
ـ آلان ! هناك قواعد ثابتـــة للأخلاق ، والأدب ، والأمانة ، والاستقامة ، وحتى النشاط . حان الوقت لـكى أعلمك أصولها. ســـوف تشتغل .
فتطلع اليه الفتى قائلا :
ـ لا يمكنك .
ـ عفـــوا ؟ ..
ـ فهناك قوانين تشغيل الصغار . لايمكننى حتى الحصول على ترخيص عمل قبل سن السادسة عشرة . هل تريد منى أنأخالف القـــانون ؟ ...
فقال ايثان وقد تجلى غضبـــه :
ـ وهل تظن ان جميـــع الأولاد والبنـــات الذين يســاعدون والديهم نصفهم عبيد ونصفهم مجرمون ؟
لم يستطع آلان الا أن يدير نظره ، وقال :
ـ لم أقصد هذا ياسيدى .
ـ أنا عارف . ولا تكرر هذا . انك جرحت كرامة عشرين جيلا من سلائل أسرة هاولى . كانوا رجالا كراما شرفاء . وربما تكون جديرا بأن تـكون واحدا منهم فى يوم من الأيام .
ـ نعم ياسيدى . هل يمكن أن أذهب الى غرفتى ياسيدى ؟
ـ يمكن .
وراح آلان يصعد السلالم بخطا وانية .
وعندما اختفى اعتدلت ايلين فى جلستها فجاة وقالت وقد جذبت

« الجونلة » فوق ركبتيها مثل فتاة مكتملة :
ـ كنت أقرأ خطب هنرى كلاى . انه كاتب ممتاز .
ـ نعم . هو كذلك .
ـ هل تتذكر خطبه ؟
ـ ليس تماما . مضى وقت طويل منذ أن قرأتها .
ـ هو كاتب ممتاز .
ـ يبدو لى انها ليست موضوعا لقراءة مدرسية للبنات .
ـ هو كاتب ممتاز .
نهض ايثان من مكانه متثاقلا ، خصوصا بعد جهد النهارالطويل فى العمل . وفى المطبخ وجد مارى محمرة العينين غاضبة ، وقد قالت له :
ـ سمعتك . انني استغرب مافعلت . هو صبى صغير فقط .
ـ هذا هو الوقت للبداية ياعزيزتى .
ـ لاتدللنى بالألفاظ انا لا أحتمل المستبد .
ـ مستبد ؟ يا الهى !
ـ انه ولد صغير . ولكنك سحقته كحشرة !
ـ لا ياعزيزتى . انني فتحت عينيه على نظرة سريعة للدنيا . انه كان يبنى دنيا زائفة .
ـ من أنت حتى تعرف ما هى الدنيا ؟
مر ايثان بجانبها واتجه الى البيت الخلفى . فقالت :
ـ الى أين تذهب ؟ ..
ـ لجز الحشائش .
ـ كنت اظن انك متعب .
ـ انا كذلك ـ أو كنت .
ثم تطلع اليها من فوق منكبه وقال وهو يخرج الى الحديقة :
ـ الانسان مسكين فى وحدته !
وسمعت مارى صليل شفرات الجزازة وهى تقلم الحشائش ثم جاءها صوت ايثان مناديا :
ـ مارى . مارى . أحبك يا مارى !
واستمرت عملية الجز بلا هوادة .

الفصل الثانى عشر

كانت مارجى « الصيادة الشابة » امرأة جذابة ، ذكية ، بل انها بلغت من الذكاء حدا تعرف معه متى وكيف تخفى ذكاءها .

لقد اخفقت فى زواجها الأول وطلقت ، وأخفقت فى زواجهـــا الثانى ومات زوجها .

وكانت تنفق أكثر دخلها الذى تناله من زوجها الأول نفقة تطوعية على زينتها وملابسها لاغراء من توقعهم فى حبائلها ، وان كانت فى علاقاتها بهم تلتزم التكتم والسرية . كان منهم دانى تيلور، والفيو مارولو ، ورئيس نقطة البوليس ستونى سميث ـ ولـكن هـــذه العلاقات لم تدم طويلا .

وتحول هدفها الآن الى ايثان هاولى ، الذى بدأ اهتمامها به عرضيا ومن قبيل سد الفراغ ، ثم استحال الى رغبة فى اختبار قدرتها وسلطانها . لقد بدا لها من المناوشات الأولى مستعصما. فهو اذن رجل خارق الارادة ، واذا غلبتـــه لـكانت أقوى ارادة وانفذ سلطانا .

ولعل مارجى كانت الوحيدة التى تفطنت الى تلك التغييرات العميقة التى بدأت تعترى ايثان ، وربما روعها ذلك اذ عـــدته من تأثيرها وصنعها ، بيد انها عقدت العزم على متابعة التجربة الى النهاية .

وهكذا نراها اليوم وقد تسلحت بأتم زينة وأبهى ملابس ، كما يتسلح القصاب بأحد مداه وأمضاها ، ثم قصدت من فورها الى محل البقالة لاتلوى على شىء فى طريقها الحافل بالمعجبين والمفتونين.

كان ايثان منهمكا فى الحديث مع رجل غريب فى منتصف العمر توحى هيأته بانه من الرجال الرسميين . فقالت مارجى :

ــ انت مشغول يا ايثان . سأعود فى وقت آخر .

وانتقلت من فورها الى البنك المجاور ، فتلقاها جو مورفى مرحبا ، ولبى رغبتها فى صرف شيك بعشرين دولارا وهو يجاذبها أفـكه الحديث لما كان بينهما من علاقة ودية لم تتجاوز حد الدعوة الى الطعام بين وقت وآخر .

وفيما هي تتأهب للانصراف لمحت الرجل الذي كان يتكلم مع ايثان يمر عن كثب منهـا ويقدم بطاقته ، وبعد برهة ادخل الى مكتب مستر بيكر وأغلق الباب عليهما . فقالت مارجي للصراف :
ـ من هــــــذا ؟ ..
ـ لم أره قبل الآن . يبدو انه من رجال التفتيش فى البنوك . فى هذه المناسبات احمد الله على امانتى وعلى قدرتي فى الجمع والطرح.
وغادت مارجي على الأثر الى محل البقالة ، ولما حياها ايثان سألته :
ـ من كان هذا الغريب الانيق ؟
ـ الا تحملين كرتك البلورية ؟ ..
ـ هل هو من رجال المخابرات ؟ ..
ـ اكثر . هل الناس كلهم يخافون من الشرطة يا مارجي ؟ انني اخاف منهم ، رغم انني لم افعل اى شيء ..
ـ هل كان ذلك الرجل الأنيق من رجال الشرطة ؟ ..
ـ ليس تماما . قال انه من رجال الحكومة الاتحادية .
ـ وما الذي كان يريده يا ايثان ؟ ..
ـ كل ما اعرفه هو ما ســــألني عنه ، ولـكنني لا اعرف ما الذي يريده .
ـ وماذا قلت له ؟
ـ من اى وقت اعرف رئيسي . ومن يعرفه غيري ؟ ومتى جاء الى « نيو بايتاون » ؟ ..
ـ وماذا قلت له ؟
ـ قلت انني عندما ذهبت الى الخدمة لمحاربة العدو ، لم اعرفه. وعندما عدت كان المحل قد آل اليه ، واعطاني عملا .
ـ وما الذي تظن انه يسعى اليه ؟
ـ الله يعلم . وان كنت أصارحك يا مارجي انني شــعرت بالقلق . انا محتاج الى هذا العمل ، واذا حدث اى شيء لمـاروللو فسوف اكون فى الشارع .
ـ هل نسيت انك سوف تغتني ؟ ..
ـ من الصعب ان اتذكر هذا وانا لست كذلك .
فقالت معابثة :
ـ تأكد ان الطالع الذي قرأته لك سوف يتحقق ..
ـ اشعر بهذا .
ـ الا تظن انك مدين لي بشيء اذن ؟

ـ صحيح ؟ ..
ـ متى ستدفع الدين ؟
فتح ايثان الثلاجة واخرج زجاجتي كولا قدم اليها احـــداهما واخذ الثانية . وقال لها :
ـ ما الذي تريدينه مني ؟ ..
ـ لم ار في حياتي رجـــلا مثلك . ربما كنت اريد ان اعرف كيف يكون الحب ، او الـكراهية ! ..
ـ أنت ساحرة . لـماذا لا تثيرين عاصـــفة ؟ ..
ـ بامكاني أن أثير عاصفة صغيرة في معظم الرجال بحاجبي فقط.
ـ أنت سيدة جميلة ولـكنك أيضا ذكية . ماذا تريدين مني ؟
ـ قرأت لك حظك وسوف يتحقق .
ـ وتريدين امتصاص نصيبك ؟ ..
ـ نعم .
فرفع عينيه وراح يقول :
ـ بامكاني الآن أن أصدقك . ماري ياحبيبة القلب :
نظرة منك الى زوجك ، وحبيبك ، وصديقك ! احميني من الشر في داخلي ومن الاذى من خارجي ! استحلفك ياماري ان تساعديني ، لانني خلقت من ضعف ، وقد اضعف وانهار !
ـ أنت مهرج يا ايثان .
ـ أعرف هـــذا .
ـ انني أصبحت أخافك الآن ، ولم أكن هكذا من قبل .
ـ لا أعرف لـــماذا .
وفجاة غيرت لهجتها قائلة :
ـ ماروللو .
ـ ماذا عنه ؟
ـ انا اســـألك .
ـ عن اذنك لحظة . عشر بيضات ، ومربع زبدة ؟ حاضر وبن ايضا ؟
ـ نعم .علبة . ومارايك في «بولبيف هومدون» ؟
ـ لم اجربه ، لـــكنهم قالوا انه لذيذ ... تحت أمرك يامستر بيكر . الم تأخذ مسز بيكر علبة من « بولبيف هومدون » أخيرا
فرد مستر بيكر الذي كان قد جاء فقطع عليهما الحديث
ـ لا اعرف يا ايثـــان . أنا آكل ما يقدم الى . مستر يونج

هانت ـ انت تريدين حلاوة كل يوم .
ـ هذا ظرف منك ياسيدى . مستر هاولى ، ضع مشترياتى فى كيس ، وساعود لآخذها وانى عائدة الى البيت .
ـ حاضر ياسيدتى .
وقال مستر بيكر بعد خروجها :
ـ هـذه شـابة مدهشة .
ـ انها منسجمة مع ماري .
ـ قل لى يا ايثان : هل جاء ذلك الرجل الحكومى الى هنا .
ـ نعم .
ـ وماذا يريد ؟
ـ لا اعرف . انه سالنى اسئلة عن مستر مارولو لم اعرف الرد عليها .
ـ ايثان : هل رايت دانى تيلور ؟
ـ لا . لم اره .
ـ هل تعرف اين هو ؟
ـ لا . لا اعرف .
ـ لابد ان اتصل به . الا تعرف اين يمكن ان يـكون ؟ ..
ـ اننى لم اره منذ شهر مايو . وكان ينوى ان يحاول العلاج من جديد . وقد اقترض منى بعض المـال .
ـ ماذا ؟
ـ اننى اقرضته مبلغا صغيرا .
ـ كم ؟
ـ عفـــــوا ؟
ـ انا آسف يا ايثان . اننا اصدقاء قدماء . آسف . هل كان يمتلك نقودا اخرى ؟
ـ اظن هذا .
ـ اذا عرفت مكانه فارجو ان تخبرنى . هل اخذت هذا المبلغ من ماري ؟
ـ نعم .
ـ وهل لم تمانع ؟
ـ انها لم تعرف ، ثقة منها بى .
ـ انت شخص حاذق .
ـ منك نتعلم ياسيـدى .

ـ وهل ماری بخير ؟
ـ بكل خير . ليتنى أستطيع ان أصحبها فی اجازة قصيرة .
ـ كل شیء سیأتی فی وقته یا ایثان . اظن اننی سأذهب الی « ماین » فی عطلة عيد ٤ يوليو ، بعيدا عن الضوضاء التی لا احتملها .
ـ الم تكن فی رحلة الی « البانی » یاسیدی ؟
ـ من أوحی اليك بهذا ؟ ..
ـ لا اعرف . سمعت فی مكان ما . ربما كانت مسز بيكر قد اخبرت ماری .
ـ لايمكن . انها لم تعرف . حاول أن تتذكر اين سمعت هذا .
ـ لايمكننی یاسیدی . وماذا يهم اذا لم يكن الخبر صحيحا ؟
ـ ساخبرك بينی وبينك لماذا أقلقنی ذلك . السبب هو انه حقيقی . ان حاكم الولاية استدعانی . انها مسألة خطيرة . من اين تتسرب اخبار كهذه یاتری ؟ ومع ذلك ساخبرك بشیء ، واذا تسرب عرفت المصدر .
ـ اذن فلا اريد ان أسمع .
ـ لاخيار لك الآن بعد ان عرفت حكاية « البانی » . ان الولاية تجری تحقيقات فی شئون المقاطعة والبلدة .
ـ لماذا ؟
ـ أظن لأن « الرائحة » فاحت حتی وصلت الی « البانی » .
ـ هل لها علاقة بالسياسة ؟ ..
ـ ان كل ما يباشره الحاكم يمكن اعتباره من السياسة .
ـ مستر بيكر . لماذا لا تجری التحقيقات علنا ؟
ـ سأقول لك سببه . ان الأخبار تسربت من الولاية ، وعندما بدأ المحققون كانت معظم السجلات قد اختفت .
ـ ان الانتخابات ستجری فی السابع من يوليو . هل ستذاع الحكاية قبل ذلك ؟ ..
ـ لا أعرف . هذا موكول الی الولاية .
ـ هل تظن ان مارولو له ضلع فی هذا ؟ اننی لا أحتمل فقدان عملی .
ـ لا أظن . ان الموظف الحكومی كان من رجال الحكومة الاتحادية . وزارة العدل .
ـ لا أظن انه من المستصوب أن تسافر فی هذه الظروف .
ـ لايهم . لن يحدث شیء قبل عطلة عيد ٤ يوليو . اريد الآن

تشحذ همتك وتبحث لي عن مكان داني تيلور .
ــ لماذا ؟ هل المسألة مهمة الى هذا الحد ؟
ــ نعم . ولايمكنني ان اذكر السبب فى الوقت الحالى . على كل حال لو امكنك العثور عليه لاستغنيت عن هذا العمل .
ــ اذا كان الأمر كذلك فسوف أبذل غاية جهدى ياسيدى .
ــ هذا عهدى بك يا ايثان . واذا وجدته فاتصل بى ، نهارا او ليلا .

الفصل الثالث عشر

أقرر هنا ، اراحة لضميري ، ان ما فعلته وماخططت لفعله كان شيئا غريبا عني ، ولـكنه كان ضرورة لابد منها . والواقع انه لم يكن لي أي ضلع في المـأساة الوشيكة التي ستقع في السابع من يوليو . انها لم تكن من عملي أو تدبيري ، لـكن كان في طـاقتي أن استبقها وافيد منها .

ومن الناس من أوتي القدرة على استشفاف التغييرات الحادثة وتلقي اشاراتها الخفية . واظن ان ماري شعرت بأن هناك تغييرا قادما ، ولـكنها أساءت تأويله . واظن ان مارجي « الصيـــادة الشابة » عرفت ايضا ، فهي ذكية كما هي ساحرة ، ولـكن هذا ادعى الى القلق .

وكنت واثقا ان مستر بيكر سوف يذهب في الاجازة بعـد ظهر يوم الجمعة في عطلة عيد ٤ يوليو أو يوم السبت لكي يتسع الوقت لوقوع ما سوف يقع وليكون بعيدا عند حدوث الصدمة . وطبعا لم يكن هذا ليهمني كثيرا ، ولـكنه أوجب علي أن أقوم بعـــدة تحركات ضرورية يوم الخميس ، احتمالا لسفره في تلك الليلة . ان عملية يوم السبت التي سأقوم بها كانت مرسومة بكل دقة وبأسلوب عملي تماما الى حد انه كان بوسعي ان أمضي في تنفيذها وأنا نائم. ولو كان عندي اي خوف منها فلم يكن بأكثر مما يعرض للممثل وهو يوشك أن يخرج الى خشبة المسرح .

وفي يوم الاثنين ، ٢٧ يونيو ، جاء مارولو الى المحل بعد أن فتحت مباشرة . وقد راح يطوف بأرجاء المحل ويتفقـــد الأرفف والمنصة مسجلة النقد والثلاجة والمخزن بصورة غير معهودة كما لو كان يراها لأول مرة . ولما سألته ان كان سيقوم برحلة في عطلة ٤ يوليو مثل غيره قال لي :

ــ ولمـــاذا تسألني هـــذا ؟

ــ لأنها رحلة يقوم بها كل قادر .

ــ والى أين يمكن أن أذهب ؟ ..

ـ الى كاتسكيلر مثلا ، أو الى مونتاوك ، حيث يمكنك صيد الأسماك .

وكانت هذه الفكرة كافية لكى يثنى ذراعيه متألما . فاقتربت منه ووضعت يدى على ذراعه برفق وقلت له :

ـ اسمع يا الفيو . لماذا لا تذهب الى نيويورك لاستشارة كبار الأطباء الأخصائيين فى الروماتزم . لابد من وجود دواء يوقف هذه الآلام .

ـ لا أعتقد فى هذا .

ـ عليك أن تجرب . لن تخسر شيئا . اننى مشفق عليك .

فنظر الى طويلا وهم ان يقول شيئا ، لكنه غير رأيه وقال :

ـ انت ولد طيب .

وهم أن يخرج ، ولكنه توقف فى المدخل وصاح قائلا :

ـ خذ سيارتى « البونتياك » .

ـ ماذا ؟

ـ اذهب بها فى رحلة يومى الأحد والاثنين .

ـ هذا شىءلا طاقة لى به .

ـ خذ أسرتك . اننى قلت للجراج ان يعطوك السيارة . والخزان مملوء بالبنزين .

ـ انتظر لحظة !

ـ اذهب الى جهنم . خذ أسرتك فى اجازة .

وطوح الى بلفافة كانت تحتوى على ثلاث ورقات من فئة عشرين دولارا .

ولم يظهر ماروللو بقية الاسبوع .

والحق اننى لم أكن أتوقع حكاية السيارة « البونتياك » . ولم يسبق له أن أعار سيارته لأى انسان . فكانت هذه هى احدى الغرائب التى بدأت تحفل بها أيامى فى العهد الأخير .

وفى يوم الخميس ٣٠ يونيو استيقظت كعادتى عند بزوغ الفجر، فكان أول ما فكرت فيه أن أتفرغ لأسرتى حتى لايشغلنى أى طارىء عما سأكرس له نشاطى هذا اليوم. وهكذا بدأت بمارى وقلت لها :

ـ هل استيقظت بدرجة تكفى لكى تسمعى أخبارا عظيمةمبهجة ؟

ـ عرفتك تهزل دائما . ان كانت أخبارك من نوع « تبليط » الحديقة فان ...

ـ دعى عنك هذا الكلام الفارغ . ان ماروللو أصدر الأوامر

بان ناخذ سيارته ونقوم برحلة سعيدة فى اجازة العيد .
ـ انك تمزح كعادتك .
ـ وهل يجوز أن أقول كذبة تحزنك ؟ ..
ـ لكن لماذا ؟ ..
ـ لا أعرف . ولكننى اقسم لك بكل يمين مقدسة ان «البونتياك» الفاخرة وملء خزانها بنزين نقى سوف تكون رهن اشارة سموك !
ـ لكن الى اين نذهب ؟ ..
ـ هذا يازوجتى النحلة الشغالة هو ما سوف تقررينه اليوم وغدا ويوم السبت .
ـ لكن هل هذا فى طاقتنا . معناه ان ننزل فى فندق أوماشابه.
ـ عندى تمويل سرى لن أكشف عنه الا فى الوقت المناسب .
ـ ترى ما الذى يريده من هذا ! ...
ـ لا يصح أن يصدر كلام كهذا من زوجتى . وربما كان يريد منا ان نحبه .
ـ لكن لابد ان اجهز اشياء كثيرة للرحلة .
ـ انه ليس بالكثير على همتك .

واثناء شربى لفنجان القهوة الثانى عند الافطار كانت مارى قد استعرضت واستبعدت نصف المناطق الترفيهية على امتداد الشاطىء الأمريكى الشرقى كله . مسكينة يا مارى حبيبتى انها فقدت طعم المرح والبهجة هذه الأعوام الأخيرة ! ..

قلت لها :

ـ ارجو أن تمنحينى جانبا من تفكيرك يانور عينى . هناك فرصة لاستثمار هام قريب . اريد مبلغا آخر من نقودك . ان المبلغ الأول اثمر جيدا .
ـ هل يعرف عنه مستر بيكر ؟..
ـ انها فكرته .
ـ اذن خذ المبلغ . اكتب شيكا به .
ـ الا تحبين ان تعرفى التفاصيل ؟ نوع الاستثمار ، وعائده ، والضرائب الواجبة عنه ، الخ ؟..
ـ لن أفهم شيئا من هذا . ولو فهمت ، فلا أريد أن أعرف . كل مايهمنى الآن هو اننا سنقوم برحلة . رحلة لمدة يومين كاملين.

بعد هذا كيف لا أهيم بحب ماري ، بل كيف لا أعبـــدها .

واسرعت اجمع زجاجات اللبن الفارغة وقصدت من فوري الى عملي .

قابلت جو مورفي في الطريق ، ودخلنا الحارة معا ، ولما رأيته متضايقا سألت عن السبب ، فقال :

ـ انني تعبت من تداول اموال الغير . عندي موعد لعطلة نهاية الأسبوع وأخشى أن تعطلني زحمة العمل .

وحشر ورقة في قفل الباب ودخل قائلا :

ـ أراك فيما بعد .

واغلق باب البنك . ففتحت باب المحل الخلفي وقلت خلفه :

ـ ياجو . هل تريد شطائر اليوم ؟ ..

فرد من الداخل قائلا :

ـ لا . اشكرك . وربما يوم الجمعة . والسبت مؤكد .

ـ الا تغلق في فترة الظهر ؟

ـ سبق ان قلت لك . البنك يقفل ، ومورفي يواصل العمل .

ـ اطلبني اذا اردت .

ـ شكرا . شكرا يامستر هاولي .

ولم يكن عندي ما اقوله اليوم لأصدقائي فوق الأرفف ، واكتفيت بأن اقول : صباح الخير يا ســادة . استريحوا .

وقبـــل التاسعة بلحظات كنت اكنس الرصيف الأمامي بعد ان لبست « المريلة » .

وكان مستر بيكر دقيقا في مواعيده . في تمام الثامنة و ٥٩ دقيقة كان واقفا لدى باب البنـــك الزجاجي ، حيث وقفت ممســـكا بالمكنسة ، وقد اعترضت طريقه قائلا :

ـ مستر بيكر . اريد كلمة معك .

ـ صبـــاح الخير يا ايثان . هل يمكنك الانتظار دقيقة ؟ تعال ادخل . تبعته الى الداخل . كانت الصورة كما وصفها جو ، مثل طقس ديني . فقد وقفا وقفة انتباه تام حتى اجتاز عقرب الساعة تمام التاسعة . وتلا ذلك على الأثر « تكتكة » وطنـــين من باب الخزانة الفولاذى الـكبير . وعندئذ أدار جو الأرقام السرية للقفل ثم أدار العجلة التي جذبت الرتاج . فانفتح الهيكل المقدس بجلال وأدى مستر بيكر التحية للأموال المتراكمة . ووقفت خارج الحاجز الحديدي انظر بخشوع متعبد ينتظر التجلي والبركة !

ثم التفت الى مستر بيكر قائلا :
ــ والآن يا ايثان : ماذا يمكن أن أؤديه لك ؟
فقلت برقة . اريد أن أكلمك على انفراد ، ولا يمكنني ان اترك المحل . سأنتهز أول فرصة وامر بك .
وجاء حقا ، في أقل من ساعة ، ووقف ينتظر الى ان خرج آخر « الزبائن » . فقلت له بلا مقدمات :
ــ مستر بيكر . ان مستر مارولو واقع في ورطة .
فاقترب مني قائلا :
ــ من أي نوع ؟
ــ لا اعرف بالضبط ياسيدى . اظن انها خاصـــة بدخوله الى البلاد بطريق غير شرعى .
ــ وكيف عرفت ؟ ..
ــ انه اخبرني بهذا ، وان قالها بشكل غير مباشر .
بدا لي ان عقله اخـــذ يعمل بسرعة لالتقاط اجزاء الصـــورة وتركيبها معا ، وقال :
ــ استمر . النتيجة ترحيل الأجانب غير المرغوب فيهم .
ــ هو هذا كما أظن . انه كان طيبا معى . ولايمكن أن افعل شيئا يضره .
ــ عليك نفسك قبل كل شيء يا ايثان . ماذا كان اقتراحه ؟..
ــ لم يقدم اقتراحا ، ولـكنني استخلصت فكرة معناها أنني اذا تمكنت من تدبير خمسة آلاف دولار نقدا بسرعة ، فيمكن أن اتملك المحل .
ــ هل تريد ان اكلمه ؟
ــ انه خارج البلدة .
ــ ومتى يعود ؟ ..
ــ لا اعرف ياسيدي . تذكر ياسيـــدى ان هذه الفـكرة هي مجرد انطباع شخصي ، ولو امكن تدبير المبلغ فقد يوافق . انه يميل الى كما تعرف .
ــ اعرف هـــذا فعلا .
ــ لاباس . لقد خطر لي انه قد يكون بامكانك أن تجهز أوراق « المبايعة » وتترك التاريخ والمبلغ على بياض . ثم أقوم بسحب المبلغ من حساب مارى يوم الجمعة .
ــ ولمـــاذا الجمعة ؟ ..

ـ سمعته يقول ان الجميع سوف يغادرون البلدة في عطلة العيد، وفهمت انه قد يعود في هذه الفترة . أليس عندك حساب في البنك؟
ـ يا الهي ! انه سحبه باكمله منذ فترة قصيرة . قال انه ينوى شراء أسهم وسندات . ولم افكر في هذا وقتها لأنه اعتاد السحب وكان يعيد المبالغ باكثر منها . هل تعرف انك قد تتعرض بهـذه العملية الى ضربة شـديدة ؟
ـ ماذا تعنى ؟ ..
ـ أولا يمكنه أن يبيع المحل لأشخاص متعددين في وقت واحد، وثانيا ان المحل قد يكون غارقا في الرهون .
ـ بامكاني بحث هذه المسالة في مكتب البلدة العقـاري . انا اعرف مشغوليتك ياسيدي . واننى أستغل صداقتك لأسرتي . وفضلا عن هذا فانك الصديق الوحيد الذى له خبرة بهذه الأمور.
ـ سوف أتصل بتوم واطسون عن الرهون . يالها من ظروف صعبة يا ايثان . انني اريد ان اقوم برحلة صغيرة مساء غد . واذا تبين ان صاحبنا منحرف فقد يؤدي الأمر الى تجريدك من كل شيء.
ـ اذن فربما كان الأفضل أن أنفض يدى من هذه المسالة. لـكن يا الهي ! انني تعبت يامستر بيكر من عملي كبائع في محل بقالة ! ان مارى ستكون سعيدة اذا تملـكت المحل . لـكن لعلك على حق. لا يجب ان اغامر بمالها .
ـ الحقيقة ان كل ما قلته لي عن صـاحبتك لايزيد عن كونه تخمينات وانطباعات . والأفضل الا تتورط .
ـ عندى فكرة . الا يمكن ان ادفع له نقدا ، دون سجلات مكتوبة ؟ ..
ـ يمكنك أن تكتب على الشيك شيئا مثل : « من اجل استثمار في عمليات بقالة مع ا . مارولو » . يمكن أن يكون هـذا تأكيدا لنيتك فقط ، دون ان تتورط في شيء اذا وقع تحت طائلة القانون.
ـ واذا لم يفلح شيء من هـذا ؟ ..
ـ اذن يمكنك اعادة المبلغ الى البنك .
ـ هل تظن ان العملية تستأهل المجازفة ؟ ..
ـ حسنا . كل شيء فيه مجازفة . ليتني لم اكن مضـطرا لمغادرة البلدة .
وعندما حضر بعض الزبائن في هذه اللحظة اقترب منى مستر

بيكر وقال بصوت خافت :
ـ سأصرف لك المبلغ أوراق بنكنوت فئة مائة دولار واسجل الأرقام . وبهذا يمكنك استرداد المبلغ اذا قبضوا عليه .
وانصرف على الأثر وهو يومىء برأسه تحية لمعارفه من الزبائن القادمين .

الفصل الرابع عشر

أول يوليو . انه يوم يفرق السنة كفارق الشعر فى الراس . انني عددته كحد فاصل فى حياتي . امس كنت شيئا معينا ، وغدا شيء آخر مختلف . لقد اتممت استعدادي وهو شيء لا رجعة فيه . ولم يكن فى حسابي أن اخفى عن نفسي ما أنا فاعله . فلم يحملني أحد على سلوك هذا الطريق الذي اخترته . وما كان أيسر أن أقول انني فعلت ذلك من أجل اسرتي ، لأنني اعرف أنني واجد فى توفير اسباب راحتهم وأمنهم ما ابتغى من عزة . ولكن هدفي كان محدودا ، وما أن اتمه حتى يسوغ لى أن اعود الى سابق طبعي وسالف شاني . ان الحرب لم تجعل مني قاتلا ، على الرغم من انني قتلت حينا من الزمن اناسا من البشر .

ومع ذلك فان الأوراق التى سطرها داني تيلور على عجل كانت بمثابة جرح فى نفسي يورث الحزن والأسى ، ومثل ذلك كان صنيع ماروللو معي ..

انني لم امض ليلتي ساهرا مسهدا كما يقال ان الناس يفعلون عشية المعركة . فقد الم بي النوم مسرعا وعميقا وشاملا ، وتخلى عني في بكرة الفجر مجدد القوى منتعشا . ثم تسللت بهدوء من الفراش وارتديت ملابسي فى الحمام وهبطت السلالم ملتزما جانب الحائط . ولم ادهش عندما ساقتني قدماي الى دولاب مخلفات الأسرة ، حيث فتحته واخرجت « تعويذة الحظ » فوضعتها فى جيبي واغلقت الدولاب كما كان ، ثم خرجت من البيت عن طريق الباب الخلفي . ولم اتمالك وأنا اسير فى الطريق المظلم الذى حفت به أشجار الدردار على الجانبين ان ساءلت نفسي : ترى لماذا حملت معي « الحجر السحرى » لأول مرة ؟ لدفع شر ؟ لجلب الحظ ؟ انني لا أومن بقراءة الطالع ، وما كان التعلق بالأماني فى نظرى الا بضاعة الخائبين .

كانت وجهتي هي المختلى الخاص بي فى الميناء القديم . ولكنني

وجدت بعد طول الرحلة ان كهفي قد امتلأ بأمواج المد واكتنفته الظلمات .

ولما عرجت على كوخ داني تيلور رأيت في الضوء المنتشر الآن الحشائش من حوله قائمة منتصبة ، فدلني هذا على ان قدميه لم تطأ الحشائش وان الكوخ خلو من صاحبه .

هكذا عدت أدراجي وفتحت محل البقالة . وفيما كنت اكنس الرصيف اذ أقبل مستر بيكر في موعده المحدد وباشر على الفور عمليته المقدسة ، وجاءت على الأثر سيارة مصفحة هبط منها حارسان مسلحان وحملا أكياسا رمادية هي أكياس النقود الى داخل البنك . وبعد عشر دقائق عادا الى القلعة الحصينة التي ابتعدت بهما الى وجهة أخرى ، وأظن انهما بقيا ، حتى أحصى جو مورفي النقود وراجعها مستر بيكر وقدم عنها الايصال اللازم . ولم اشك بالنظر الى حجم وثقل الأكياس ان البنك قد وضع في حسبانه عطلة عيد ٤ يوليو وما يقترن بها من كثرة سحب الأموال فأعد للأمر عدته . ولو انني كنت لصا عاديا من لصوص البنوك لكانت هذه هي الفرصة المتاحة للسطو . لكنني لم اكن هذا اللص العادي . ان الفضل في كل ماعرفته يرجع الى جو مورفي . وكان بوسعه أن يكون من كبار لصوص البنوك لو أنه رغب في ذلك . ترى لماذا لم تكن عنده هذه الرغبة ، حتى لمجرد أن يجرب نظرياته ؟

كان العمل متواصلا هذا اليوم . وعندما جاء مستر بيكر حوالي الساعة الحادية عشرة كان في عجلة ظاهرة حتى اضطررت الى تأجيل طلبات بعض « الزبائن » ودخلت معه الى المخزن .

وضع مظروفا كبيرا وآخر صغيرا في يدي . وبلغ من تعجله انه كلمني بايجاز شـــــديد قائلا :

ـ قال توم واطسون ان المحل بلا رهون . اليك اوراق نقــل الملكية . ضع الامضاءات تحت العلامات . انني وضعت علامات على المبلغ واخذت الأرقام . واليك الشيك لكي توقع عليه . آسف لاستعجالي يا ايثان .

ولما وقعت على الشيك فحصه جيدا رغم استعجاله وقال لي :

ـ اعرض عليه الفين اولا . ثم زد العرض مائتي دولار كل مرة . لا تنس أن رصيدكم في البنك لا يزيد الآن عن خمسمائة دولار . كان الله في عونك اذا احتجت الى نقود . والآن لابد لي من الذهاب . اريد أن أسرع قبل زحمة المرور وقت الظهر .

ومرهذا اليوم بطيئا ثقيلا . وحوالى الساعة الخامسة جاء ستون سميث رئيس النقطة لشراء بعض المأكولات المجهزة وكان بادى الارهاق ، ولما سألته عما به تملص من الاجابة الصريحة ، وسألنى فجأة :

ــ قل لى يا ايثان : انت صديق لمستر بيكر . هل تعرف ان له معاملات سرية غير مشروعة ؟ ..

ــ وكيف اعرف ؟ .. لست صديقه الى هذه الدرجة .

ــ وما رأيك فى مارولو ؟ .. اين مارولو الآن ؟ ..

ــ ذهب الى نيويورك لعرض نفسه على أخصائى فى الروماتزم.

ــ يا الهى ! اننى لا اعرف شيئا . لو عرفت ولو شيئا قليلا ، لخطوت على نور .

ــ ما هـذا الـكلام ياستونى ؟ .. كلامك مبهم .

ــ ابدا . اننى تكلمت بما فيه الـكفاية . لـكن لن يكون بوسع احد أن ينسب الى شيئا .

وفجأة امسك بذراعى قائلا :

ــ ايثان . هل تظن اننى شرطى صالح ؟ هل تظن ان من الصواب ان يضطروا انسانا الى الوشاية بأصدقائه لـكى ينقذ نفسه ؟ ..

ــ لا . لا اظن .

ــ ولا أنا . لايمكننى احترام رؤساء هـذا اسلوبهم . ان ما يحزننى هو اننى لن اكون شرطيا صالحا بعد الآن لاننى لا انظر بالتقدير والرضاء الى ما افعله . ان المساكين كانوا اصدقائى ..

رحت اهون عليه . وقبل أن يحمل مأكولاته قلت له :

ــ كنت أريد الاستفهام منك عن شيء . لقد عثرت وانا انظف المحل على مسدس قديم ، كله صـدأ وشحم يابس . وقد قال مارولو انه لا يخصه . وهو لا يخصنى بالتأكيد . فماذا يمكن أن افعل به ؟ ..

ــ حوله الى اذا كنت لا تريد الحصول على ترخيص عنه .

ــ سأحضره من المنزل غدا . فاننى وضعته فى علبة بها بترول . ماذا تفعل بشيء كهذا ياستونى ؟ ..

ــ انتظر لأرى ان كان هناك تحقيق بخصوصه ، وبعـد ذلك القيه فى البحر .

فقلت لـكى أسرى عنه :

ــ هل تتذكر منذ سنوات قريبة فى بعض جهات الولاية ؟ انهم

ضبطوا البوليس يبيع اسلحة مصادرة ! ..
والواقع ان هذا أضحكه ، حتى حمل لفافته وانصرف احسن حالا مما جاء .
ولما عدت الى البيت آخر النهار وجدت مشكلة فى انتظارى . فان مارى قد اختارت لرحلتنا الوشيكة منطقة خلوية قرب مونتوك كانت أصلا مزرعة لتربية الأبقار ثم تحولت أخيرا الى ساحة لقضاء العطلات حيث ينزل القادمون فى بيوت للضيافة .
ولكن ايلين كانت تريد أن تذهب الى نيويورك لكى تنزل فى احد الفنادق وتمضى يومين فى منطقة « تيمزسكوير » . أما آلان فلم يكن يريد أن يذهب الى أى مكان ، وربما كانت هذه هى طريقته فى لفت الأنظار اليه واثبات وجوده .
هكذا وجدت البيت يغلى بأسباب الانفعال : ايلين تبكى بدموع بطيئة جارية على خديها . ومارى متعبة وموردة من تأثيرالاحباط. وآلان منزو فى غرفة الجلوس متبرما يستمع الى « الترانزستور » الصغير الخاص به والذى كان يولول بأغنية عن الحب والضياع بصوت أقرب الى الهستيريا تقول : « وعدت أن تكون مخلصا ، ولكنك أخذت قلبى المحب المهجور ورميته على الأرض » .
قالت مارى انها يئست وتكاد تنفض يديها من الرحلة. فقلت لها :
ــ ألا يمكن أن نحبسهم فى « البدروم » ونذهب وحدنا ؟ ..
فقالت وقد اضطرت الى رفع صوتها لكى يكون مسموعا فوق صخب أغنية « القلب المحب المهجور » :
ــ الحقيقة اننى أتمنى الآن ان نفعل هذا .
وفجأة تملكنى الغضب . فاستدرت متجها الى غرفة الجلوس. لكى أمزق ابنى اربا وأرمى « قلبه المحب المهجور » على الأرض وأدوسه. ولكن الموسيقى توقفت فجأة ، وانبعث صوت المذيع قائلا :
« نقطع هذا البرنامج لكى نقدم لكم نشرة أخبار خاصة . صدر أمر قضائى بعد ظهراليوم بتقديم كبار الموظفين فى «نيوبايتون» ومقاطعة ويسكس الى هيئة المحلفين الكبرى للتحقيق معهم فى الاتهامات الموجهة اليهم والتى تتراوح بين الحصول على الرشاوى عن العقود والمناقصات المتعلقة بالمشروعات العامة وفرض الاتاوات على القائمين بها والتلاعب فى القضايا ... »
هكذا وقعت الواقعة . نزلت الضربة على العمدة ، والمجلس ، والقضاة وغيرهم .

استمعت الى النشرة الاخبارية محزونا مكتئبا . كانوا غارقين فى هـذه الأفعال المنافية للقانون . وحتى لو كانوا ابرياء ، فلن يخلى سبيلهم قبل الانتخابات المحلية . وحتى الذين تثبت براءتهم فالاتهام سوف يظل ماثلا فى الأذهان . هكذا احيـط بهم . وقد اصغيت لسماع اسم ستونى سميث رئيس النقطة بين أسماء المتهمين ، لكن اسمه لم يرد ، وهكذا استخلصت انه اوقع بهم للنجاة بجلده . وكان فى هذا تفسير ما رايت اليوم من ضيقة وغمة .

قالت مارى وكانت تنصت لدى الباب :

ــ حسنا . لم تحدث عندنا أشياء مثيرة منذ مدة . هل تظن يا ايثان ان هذا صحيح ؟ ..

ــ هذا لايهم . ان المقصود اشياء ابعد من ذلك .

ــ ترى ما هو راى مستر بيكر ؟

ــ انه سافر فى اجازة . واننى أتساءل مثلك ، ما هو شعوره يا ترى ؟ ..

ان الأخبـار ، والعشاء ، والاطباق ، شغلتنا كلها عن مشاكل الرحلة حتى فات الوقت او كاد لاتخاذ قرار نهائى ، او لمزيد من الدموع والخصام .

ولما أويت الى فراشى لم استطع ان اغالب تلك الرعشـة التى انتابتنى من قمة راسى الى اخمص قدمى . وقالت لى مارى :

ــ اراك فى حالة سيئة ياعزيزى . هل تشعر بمرض ؟ ..

ــ لاياحبيبتى . اننى اكاد أشعر بما يشعر به هؤلاء النـاس . لابد انهم فى أسوا حال .

ــ كفى يا ايثان . لايمكن ان تحمل على كتفيك متاعب الآخرين .

ــ بل هذا هو الواقع .

ــ ترى هل يمكن ان تصبح من رجال الأعمال يوما ما ؟ .. انت كثير الحساسية يا ايثان . ليست هذه جريمتك .

ــ بل ربما كانت جريمتى ... وجريمة كل انسان .

ــ لست افهم .

ــ ولا انا ياحبيبتى .

ــ لو كان عندنا فقط من يمكن ان يبقى مع الاولاد ؟ ..

ــ كررى هذا الكلام ياحبيبتى . كرريه .

ــ ليتنى كنت أستطيع ان أقضى اجازة معك وحدك .

ــ ان اقاربنا معدودون . فكرى معى ياحبيبتى . لو امكن ان

« نعلب » الأولاد أو « تخللهم » لمدة قصـــيرة ! .. فكري معي واقدحي زناد فكرك يانور عيني . انا مشتاق لكي نكون وحدنا نحن الاثنين فى مكان غريب بعيد ... بعيد . ضميني الى صدرك ... لنفكر فى طريقة .

ــ اراك مازلت ترتعش !.. هل تشعر ببرد ؟..

ــ برد وحر . امتلاء وخواء . انا متعب .

ــ سأحاول التفكير فى طريقة تخلصنا منهما . نعم اننى احبهما ، لـكن ...

ــ انا اعرف .

ــ هل سيوضعون فى السجن ؟ ..

ــ ياليت ...

ــ أقصد اولئك الموظفين ...

ــ لا . لن يكون هذا ضروريا . بل انهم لن يمثلوا امام المحلفين قبل يوم الثلاثاء القادم ، والخميس هو موعد الانتخابات . هــذه هى الحكاية المرسومة .

ــ ايثان ! انت متشكك فى كل الناس ... ومتشائم .

فجأة شعرت بالخوف . خشيت أن يكون تأثرى بالأحداث الجارية سبيلاً لاظهار ما أضمره فى نفسى . ان مارى رغم انها تعيش فى دنيا كلها ورود وأحلام قد تأنس فى مسلكى أو انفعالاتى بادرة تكشف المستور من خطتى . وفى هذا خطر كل الخطر ، الى ان يمر الغد بسلام .

لو أن هــذه الخطة نبتت امامى كاملة لرفضتها كمحل ظـــاهر الاستحالة . ولـكنها بدأت لعبــة . بدأت بالقواعد التى شرحها جو مورفى لسرقة اى بنك . وبسبب ما كنت أعانيه من ضـــيق وضجر فى عملى التافه تعلقت بهذه اللعبة واخذت اربط بينها وبين كثير من الأشياء الصغيرة التى كانت تقع فى طريقى : ابنى آلان وقناع الفأر ميكى ماوس ، « التواليت» الذى يتسرب منه الماء ، المسدس الصدىء ، اقتراب عطلة العيد ، معلومة جو مورفى على حشر ورق فى قفل باب البنك الخلفى المطل على الحارة المشتركة بيننا . وقــد رحت أكمل اللعبة برسم توقيت للعمليـــة ذاتها ، واجراء تجارب نظرية وفعلية .

ولست أدرى متى اصبحت اللعبة غير معدودة لعبـــة فقط . ربما كان ذلك عندما عرفت اننى قد اشترى المحل وقد أحتـــاج

الى مال لادارة العمل فيه . ثم انه من الصعب نبذ عملية ناضجة دون اختبارها عمليا . اما عن الجريمة ، والخروج عن نطاق الشرف والأمانة ـ فانها ليست بجريمة ضد الناس ، بل ضد المال فقط . لن يضار احد بهذه الفعلة . فالمال مؤمن عليه . أما الجريمة الحقيقية فهى ضد الناس ، ضد داني تيلور ، وضد الفيو ماروللو . ولو تهيأ لى أن أقوم بالعملية ، فان السرقة لن تكون شيئا مذكورا . وسوف تكون عملية موقوتة عارضة . ولن يتكرر مثلها بحال . وصفوة القول قد وجدت قبل أن أدرك انها لم تعد لعبة ، ان خطتي أصبحت تامة : عدة وتوقيتا .

صحيح ان طروء حادث عرضى كان محتملا . لكن هذا محتمل أيضا أثناء عبور شارع أو سير تحت شجرة . وهكذا لم يبق عندى خوف ، وكل ما كان يلابسنى هو ذلك الاشفاق الذى يعرض للممثل وهو واقف بين الكواليس فى الليلة الافتتاحية ، على وشك الانتقال الى خشبة المسرح .

وفى خشيتي من عدم النوم نمت نوما عميقا ، بلا أحلام ، واستيقظت متأخرا حتى نهضت من الفراش منتفضا مما أيقظ مارى التى قالت :

ـ ماذا جرى ؟ ..

ـ تأخرت فى النوم .

ـ كلام فارغ . لايزال الوقت مبكرا .

ـ ابدا ياملاكى.هذا يوم سوف يشترى فيه الناس كل بقالةالدنيا.

ـ ستحتاج الى افطار مشبع .

ـ هل تعرفين ما سأفعل ؟ سآخذ قهوة مضاعفة من عند فورماستر ، وانقض على معلبات ماروللو مثل ذئب . فكرى أنت فى طريقة لهروبنا من اولادنا الأعزاء . اننا بحاجة الى هذا . وأنا أعنى ما أقول .

وارتديت ملابسى وخرجت قبل محاولة جديدة من جانبها لتوفير راحتي وهنائى .

قابلت جو مورفى فى الحارة الفاصلة بين البنك والمحل كالمعتاد ، فبادرنى على الفور قائلا :

ـ ما رأيك فى الأخبار التى أذيعت ؟

ـ مثيرة بلا حدود .

ـ بامكان بيكر أن يعود الآن . ترى هل يفعل ؟ ..

ـ يعود ؟ ..
ـ الا تشم شيئا ؟ ..
نظرت اليه متحيرا وقلت :
ـ هنا لى اشياء لا تزال غائبة عنى .
فقال بلهجة غامضة :
ـ انتظر ، وسوف ترى العجب العجاب .
قال جو مورفى هذا وهو يدس قطعة ورق فى فتحة القفل كعادته ثم استأذن ودخل دون تعقيب آخر . دخل بابه ولم أسمع صوت زنبرك القفل « يتك » ! .. وارجو الا يعرف جو مورفى فى يوم من الأيام انه كان الفضـــل معلم لى . فانه لم يعلمنى فقط ، بل انه مثل الواقع مطيا ؟ دون وعى منه ، وبذلك مهد الطريق أمامى.
لـكن هناك سؤال منطقى قد يوجه الى : اذا كان قد أصبح من المحقق اننى انال المحل لنفسى ، فما حاجتى الى المـــال اذن ؟ لاشك ان أناسا مثل مستر بيكر وجو مورفى يعرفون الرد ، وكذلك مارولو بالطبع. انالمحل بغير راس مال سائل هو اسوأ من لا محل. فالافلاس هنا محقق. ان الموردين لايفتحون أيديهم بسخاء لأصحاب المحال الناشئين . واذن فلابد لى من مال حاضر ، وهذا المـــال موجود ينتظرنى خلف أبواب البنك ، وعملية الاستيلاء عليه لم تلبث ان انتقلت من نطاق القصور الى دائرة الواقع المؤكد . وكونالسرقة شيئا غير مشروع أمر لم يقلقنى كثيرا . ولو كان مارولو مكانى لما تردد فى الاقدام عليها . انما الذى كان يقلقنى هو ما انتهى اليه أمر دانى بيلور ، وان كان مقضيـــا عليه على اى حال . ثم ان محاولة مستر بيكر الفاشلة لـكى يفعل مع دانى نفس ما فعلتـــه كانت تبريرا كافيا لعملى . ورغم هذا فان مسألة دانى بقيت بمثابة الجرح الملتهب فى امعائى ، وكان على ان أحتمل الجرح كما يحتمله من يخوض معركة ناجحة . ولعل الزمن كفيل بابراء هـــذا الجرح فى يوم من الأيام .
كانت المسالة المباشرة الآن هى المال ، وقد انممت اعداد الخطة بكل دقة .
ان القواعد التى ذكرها مورفى كانت ماثلة فى ذهنى تماما ، القاعدة الأولى : عدم وجود سابقة ـ لا سوابق لى على الاطلاق . القاعدة الثانية : عدم وجود شركاء ـ من المؤكد انه لاشريك لى فى التدبير أو التنفيذ . القـــاعدة الثالثة : عدم وجود امرأة ـ والواقع ان

مارجي الملقبة « بالصيادة الشابة » هي الوحيدة التي يمكن اطلاق هذا الوصف عليها ، ولم يكن في نيتي بأي حال ان اشرب الشمبانيا من حذائها . القاعدة الرابعة : عدم التبذير والحقيقة انني سأستعين بهذا المال لسداد فواتير تجار الجملة ، وسوف اخفيه في مكان امين لا تمتد اليه يد .

بقيت مسألة التعرف على الفاعل . انني سألبس قناع الفأر ميكي ماوس ، ولن يبصر احد شيئا آخر . وسأرتدي معطفا واقيا قديما للمرولو ، ومثل هذه المعاطف متشابهة ، الى جانب قفاز من السيلوفان مما يباع في كل مكان . وسيلقى القناع والقفاز في « التواليت » حال اتمام العملية . اما المسدس القديم فسوف يسلم بعد انتهاء الغرض منه الى رئيس النقطة ستوني سميث باقرب فرصة .

وهناك قاعدة اخيرة اضفتها من عندي . عدم الطمع وتجنب فئات البنكنوت الكبيرة . فلو وجدت امامي حوالي ستة آلاف او عشرة آلاف دولار من فئة العشرة أو العشرين دولارا لكان هذا القدر كافيا وسهلا اخفاؤه .

وعلى هذا النحو يكون كل شيء على احسن مايرام .

ولم يكن يؤسفني الا عدم وجود مستر بيكر في البنك وقت العملية . لن يكون هناك سوى مورفي وزميليه هاري واديث . وكان التوقيت مرسوما بكل دقة . ففي الساعة التاسعة الا خمس دقائق اضع المكنسة في المدخل . ثم البس « المريلة » ، واعلق الصنجة في سلسلة « السيفون » لكي يتدفق الماء باستمرار في «التواليت». فاذا جاء اي انسان سمع صوت المياه وفهم ماهومطلوب ان يفهمه. ثم المعطف ، والقناع ، والمسدس ، والقفاز ، وعلبة فارغة للنقود.

وفي تمام التاسعة يكون عبور الحارة ، ودفع الباب الخلفي، ولبس القناع ، والدخول عقب سماع صوت فتح باب الخزانة . ثم تهديد الموظفين الثلاثة بالمسدس لكي ينبطحوا على الأرض ، بالحركات طبعا وبدون اي كلام . ولن تصدر منهم اية مقاومة ، لأن جو مورفي قال ان المال مؤمن عليه ، ولا تأمين على حياتهم هم . ثم أخذ النقود، ووضعها في العلبة ، وعبور الحارة والقاء القناع والقفاز في «التواليت» الجاري المياه ، ووضع المسدس في اناء البترول كما كان ، وخلع المعطف ، وانزال « المريلة » كما كانت حول الوسط ، واخفاء النقود في علبة القبعة ذات التجويف السري ، واخذ المكنسة ، واستئناف

عملية كنس الرصيف ، لكي اكون تحت الانظار عند الانذار بوقوع السطو . ان العملية كلها لن تستغرق اكثر من دقيقة واحدة واربعين ثانية ، بالتجربة والمران مرارا وتكرارا .

ومع ذلك ، وبرغم هذه الدقة المتناهية فى التخطيط والتنفيذ ، فانني لم اتمالك أن شعرت بقلبي يخفق انفعالا ، وبدا لي وانا انظر الى عقربي ساعة ابي الكبيرين انهما لايكادان يتحركان ، وكان الزمن قد توقف .

لقد مضت فترة طويلة منذ ان خاطبت « اصدقائي » لآخر مرة ، ولكنني اتجهت اليهم هذا الصباح بالحديث ، ربما تأثرا وانفعالا:

ـ أصدقائي . ان ما سوف تشهدونه هو لغز خفي . وانا اعرف انه يمكنني الاعتماد عليكم لالتزام الصمت . واذا كان بينكم من يخامره اي احساس بصدد الجانب الاخلاقي لهذا العمل ، فليتفضل بالخروج .

وتوقفت برهة ، ثم اردفت :

ـ لا اعتراض ! حسنا جدا . اذا سمعت في اي وقت ان «معطبا» منكم ناقش هذا الامر مع الاغراب ، فسوف يكون جزاؤه الاعدام بالشوكة ... وانتهز هذه الفرصة فاوجه اليكم شكرى . لقد كنا جميعا هنا خداما متواضعين لتلبية الطلبات واشباع البطون ، وما كنت الا خادما مثلكم . أما الآن فهنالك تغيير وشيك. سوف اكون منذ الآن فصاعدا السيد الآمر الناهي ، لكنني اعدكم انني ساكون سيدا طيبا وشفوقا ومتفهما . ان الوقت يقترب ايها الأصدقاء ، والستار يرتفع ، فالى اللقاء .

وعندما تحركت الى الباب الامامي بالمكنسة ، سمعت صوتي يهتف : « داني ـ داني ـ اخرج من معدتي وخلصني من الغثيان! ».

وانتابتني رجفة عنيفة هزتني هزا حتى اضطررت ان استند الى المكنسة برهة قبل ان افتح الباب .

كانت ساعة ابي تؤذن عقربها القصير بالتاسعة ، وعقربها الطويل بنقص ست دقائق . وسمعت دقاتها قوية فى راحة يدى كقلب قوى خفاق .

الفصل الخامس عشر

كان اليوم مختلفا عن سائر الأيام كما تختلف الـكلاب عن القطط والأسود عن الأبيض . ففيه أمطرت السماء رغم شمس يوليو ولم تترفق بالحشود الزاحفة الى الشواطىء فى عطلة العيد لا تسترها سوى ملابس الصيف .

وكانت محال البقالة المماثلة لا تفتح قبل منتصف العاشرة، ولكن ماوروللو كان يسبقها بنصف ســاعة لـكي يقتنص ما يستطيع من « الزبائن » . لقد فكرت أن اغير هذا الأسلوب عندما يؤول الأمر الى ، لأنه يوغر صدور أصحاب المحال بأكثر مما يبرره الربح . ولكن ماروللو لم يكن يحفل بهذا ، فهو أجنبى ، وهو مجرم وطائفية، وهو معتصر لدم الفقراء ، وهو عشرات أخرى من هــذه الصفات والمثالب . لقد كان من الطبيعى وقد سعيت الى القضاء عليه أن تبدو لى جرائمه ونقائصه واضحة مجسمة .

رحت أراقب عقرب الدقائق الطويل فى ساعة ابى يتحرك ثقيلا وانا اكنس بغلظة ومتوتر الأعصاب فى انتظار لحظة العمل السريع الحاسم . وكنت أتنفس من خلال فمي وقد شعرت بمعدتى تندفع الى رئتى كما لو كانت تشاركنى فى التحفز للهجوم .

كان الناس فى يوم السبت هذا الرابع من يوليو قليلين فيما حولى. ولم اتمالك أن عجبت لتأخر موظفى البنك فى الحضور ، ولعلهم كانوا مثل فئران تلهو فى غياب القط بيكر . فهم الذين انشدهم وأريد حضورهم لفتح البنك فى الموعد المحدد . وكانت الساعة أقل من التاسعة بدقيقة عندما اندفعوا خارجين من المقهى واسرعوا بعبور الشارع ، حتى هتفت بهم :

ـ اجروا ! اجروا !

فعلت وجوههم الابتسامات وهم يفتحون ابواب البنك ، وان كانوا فى غفلة عما هو مدخر لهم .

الآن قد حانت اللحظة الحاسمة . ينبغي الا افكر فى العملية كلها ، وانما أسير فيها خطوة خطوة ، وكل خطوة فى مكانها المرسوم ، طبقا

لما رسمت وتدبرت . وهكذا تحاملت على معدتي لكى تهبط الى مكانها الطبيعي ، واسندت المكنسة الى جانب الباب لكى تبدو لكل العيان . وبدأت أتحرك بسرعة فيها العزم والقصد .

ثم لمحت من زاوية عيني سيارة تدرج في الشارع وتوقفت لكى ادعها تمر .

ـ مستر هاولى !

استدرت بعنف كما يفعل رجال العصابات في أفلام السينما عندما يحاصرون وتسد عليهم المسالك. فرأيت السيارة تقف لدى الناصية ويهبط منها ـ يا الهي ـ ذلك المندوب الحكومي الذى تحدثت عنه.

ان الأرض الصلبة التي وقفت عليها مادت من تحت قدمي وترنحت كانعكاس صورة في المياه . ورأيته وانا مشلول مكاني يتقدم نحوى . وخيل الى كأنما استغرق في هذا دهرا . لكن هذا هو ما حدث ببساطة. ان البناء القوى الذى أقمت صرحه تخطيطا وتنفيذا ما لبث أن استحال الى تراب أمام عيني ، كما يتحول تمثال طال دفنه تحت الثرى بمجرد أن يلفحه الهواء .

لقد خطر لى أن اندفع الى « التواليت » وامضي في اتمام عملية السطو على البنك . لكنها لن تنجح الآن . وما كان لى أن أنتهك القواعد التي استنها جو مورفى . وان كانت في الحق صدمة كبرى أن يتخلى الانسان عن خطة أطال التفكير فيها وتدرب عليها مرارا حتى لم يكن تنفيذها الا مجرد تكرار أخير. ولكنني مع ذلك نبذتها نبذا ، وانصرفت عنها نهائيا . فلم يكن لى من خيار ولا كانت لى حيلة ، وطافت براسي فكرة تقول : الحمد لله انه لم يحضر بعد هذا بدقيقة ، والا كان ذلك هو المصادفة القتالة التي يتحدثون عنها في القصص الجنائية .

قال الرجل ولابد انه استشف شيئا من حالي :

ـ مالك يامستر هاولى ؟ يبدو عليك المرض .

فقلت : أسهال .

ـ هذا شيء لايصبر عليه احد . اسرع . سأنتظر .

اندفعت الى « التواليت » ، واغلقت الباب ، وجذبت السلسلة لكي يتدفق الماء . ولم اضيء النور . وجلست في الظلام وامعائي المضطربة في حركة مائجة . وبعد لحظة حدث ما لابد من حدوثه ، ورويدا تلاشت الضغوط التي كنت أرزح تحتها . ولم اتمالك أن اضفت قاعدة جديدة الى قواعد جو مورفى : في حالة حدوث

طوارىء ، غير خطتك فى الحال .
كان يحدث لى هذا من قبل فى الأزمات أو الخطر الشديد :كنت انفصل عن ذاتى واراقب وكاننى غريب يسجل ويرصد ـ اراقب نفسى وحركاتى وتفكيرى ، لكن فى منعة من التأثر بالانفعالات المتولدة . وفى جلستى فى الظلام هذه رأيت الشخص الآخر يطوى خطته المحكمة ويضعها فى صندوق ويطبق عليها الغطاء ويواريها لا بعيد عن نظره فقط بل عن تفكيره . وبعبارة أخرى ماهو الا أن قمت فى الظلام وسويت ملابسى ووضعت يدى على الباب الرقيق حتى كنت من جديد بائع محل البقالة المستصند ليومه الحافل بالعمل . لم يبق شىء من التخفى واللياذ بالتكتم والسرية . ورحت على الأثر اتساءل ما الذى يريده منى هذا الشاب القادم ، بلا خوف الا من ذاك الاشفاق اليسير المتولد من خشية الاحتكاك بالبوليس.
قلت له :
ـ آسف لجعلك تنتظر . لا اتذكرما الذى اكلته حتى سبب هذا الاسهال .
فقال :
ـ هناك ميكروب دائر هذه الأيام . هذه الحالة حدثت لزوجتى فى الاسبوع الماضى .
ـ ان هذا الميكروب كان يحمل مسدسا فى بطنى . ولولا اننى اسرعت ... هل من خدمة اقوم بها ؟ اتذكر انك كنت هنا قبل الآن . ما هو عملك ؟ ..
فأجاب باسما :
ـ أنا تابع لوزارة العدل . لكننى لست الآن فى مهمة رسمية. ولا اظن حتى ان الوزارة ستوافق ، لكن انا اليوم فى راحة .
وصمت برهة . ثم أردف :
ـ الحكاية معقدة ، ولا اعرف تماما من اين ابدأ. انا فى الخدمة منذعشرسنوات ياهاولى، لكننى لم اصادف ابدا مثلهذه المسالة.
ـ ربما لوشرحت لى لأمكن ان اساعدك . اظن ان اسمك والدر.
ـ رتشارد والدر .
ـ اسمع يامستر والدر . ان « الزبائن » سوف يهجمون بعد قليل ، فقل لى ما هى مشكلتك . اننى تكلمت مع مستر بيكر فى البنك ، وانت تطارد مستر مارولو ، رئيسى .
فقال بصوت خفيض :

ـ وقد تمكنت منه .
ـ لأي شيء ؟ ..
ـ دخول البلاد بصورة غير شرعية . ليس هذا ذنبي . ان الوزارة تقذف الي بملف ، فأتتبعه ، وليس من شأني أن أحاكمه .
ـ هل سيعملون على ترحيله ؟ ..
ـ نعم .
ـ هل يمكنه أن يعارض . هل يمكن أن أساعده ؟ ..
ـ لا . هو لايريد ذلك . لقد اعترف بجريمته . ويريد أن يرحل ..
في هذه اللحظة دخل سبعة أو ثمانية « زبائن » ، فقلت له :
ـ انني حلوتك .
وانصرفت الى خدمتهم . ومن حسن الحظ انني كنت قد تأهبت لهذه المناسبة واستحضرت مايكفي لمواجهة الطلبات الخاصة بعطلة العيد .
وما أن فرغت بعد انصرافهم حتى قلت له :
ـ قل لي بسرعة ماذا تريد ؟ ..
ـ انني وعدت مارولو بالحضور الى هنا . انه يريد أن يعطيك المحل .
ـ انت مجنون . عفوا ياسيدتي . انني كنت أكلم صديقي .
ـ آه ، بالطبع . اريد لفائف فرانكفورتر تكفي خمسة أشخاص .
على هـذه الصـورة كان انقطاع الحديث مع صـاحبي ، وعند استئنافه من جديد قال لي :
ـ الحقيقة انني أعاني من صدمة . ان عملي في الغالب مع المجرمين والمحتالين والنصابين ، فاذا وجـدت بينهم شخصا مستقيما كان ذلك صدمة لك ولا شك .
ـ ماذا تقصد بكلمة « مستقيم » ؟ ان رئيسي لم يكن كريما في اي يوم . انه رجل لئيم .
ـ اعرف هذا . ونحن الذين جعلناه هكذا . انه صارحني وقد صدقته . قبل حضوره الى هذه البلاد كان يصدق الكلمات المنقوشة على «تمثال الحرية» ، ويعي في ذاكرته منطوق «اعلان الاستقلال» و « وثيقة الحقوق » . ولـكنه بعد هـذا لم يتمكن من دخول البلاد . ومع ذلك فقد دخل . ساعده « انسان عطوف » بعد أن أخذ منه كل ما يملك وانزله بين امواج الشاطيء لكي يخوضها حتى البر . ومضت مدة طويلة قبلما استطاع أن يفهم «الطريقة الأمريكية» ،

ولكنه تعلم ، وتعلم ، حتى استطاع أن يقف على قدميه ويكون ثروته . وهذا هو السبب فى انه لم يتألم عندما وشى به أحدهم.
ــ وشى به ؟ ..
ــ بالتأكيد . كل ما لزم هو مكالمة تليفونية .
ــ من هو المتكلم ؟ ..
ــ من يعرف ؟ .. ان الجهاز الادارى كآلة . كل ماهو مطلوب هو أن تحرك المفاتيح فتمضى الآلة تلقائيا الى النهاية .
ــ ولماذا لم يقاوم ؟ ..
ــ انه تعب . ثم انه «قرف» . وقد جمع مالا ، ويريد العودة الى صقلية .
ــ مازلت لم أفهم حكاية المحل .
ــ انه اختبرك ووجد فيك الاستقامة ، فمال اليك .
ــ واذا كان مخطئا فى ظنه ؟
ــ ليس هذا رأيه . انه يريد أن يجعل منك رمزا أو تمثالا باقيا لشىء كان يؤمن به فى وقت ما . ان معى فى السيارة أوراق نقل ملكية المحل . وكل ما هو مطلوب منك هو ملؤها .
وخرج الى السيارة وعاد بعد قليل ومعه مظروف منتفخ، وقال لى:
ــ لابد أن أذهب الآن . أمامى أربع ساعات فى السيارة لكى أعود الى زوجتى التى تكاد تجن من الانتظار . اننى سألته لن كانت عنده رسالة لابلاغها لك ، فقال : « قل له : حظا سعيدا » . هل عندك رسالة له ؟
ــ قل له : « صحبتك السلامة » .
وأقبلت موجة أخرى من « الزبائن » . فألقيت المظروف فى الدرج أسفل مسجلة النقد وقلبى مفعم بالأسى .

الفصل السادس عشر

مضى النهار سريعا ومع ذلك بدا وكأنه بلا نهاية .

وجاء جو مورفى وأنا أوشك اغلاق ابواب المحل الأمامية . وقد حاولت ونحن نحتسي شرابا خفيفا من المعلبات ان اخبره بحكاية مارو للو والمحل ، فوجدت انني لا استطيع ، حتى ولا الحكاية التي قيلت لى بدلا من الحقيقة التي اعرفها وحدى . وقد قال لى :

ــ يبدو عليك التعب .

ــ أظن هذا . انظر الى هذه الأرفف . لقد جردوها !

وأفرغت محتويات مسجلة النقد فى الكيس الرمادى المخصص لها ، ووضعت معها النقود التى جاءنى بها مستر بيكر ، وفوقها المظروف المنتفخ ، وحزمت عنق الكيس بقطعة دوبار . فقال لى :

ــ لايجب أن تترك هذا عرضة للأنظار .

ــ ربما كان ، تقول . سأخفيها فى مكان آخر .

ــ بالمناسبة ، هل تعرف ان غريزتى فى التكهن المسبق لاتكذب ؟ لقد استيقظت اليوم وعندى شعور قوى بأن البنك سوف يتعرض للسرقة هذا اليوم . اننا نضع أوتادا صغيرة تحت جرس الانذار الأرضى لئلا ندوس عليها خطأ . وكان أول مافعلته هذا الصباح هو اننى رفعت هذه الأوتاد . ومعنى هذا متى كنت واثقا من حدوث سطو . فكيف تفسر هذا ؟ ..

ــ ربما كان أحدهم خطط للسرقة وقرأت أنت أفكاره نعدل . هل تعرف ياجو اننى من شدة التعب لن أتمكن من الكنس اليوم ؟

ــ لاتترك كل هذه النقود هنا الليلة . خذها الى البيت .

ــ ليكن ، مادمت تقول هذا . سأحملها كلها فى هذه الحقيبة الجلدية . هل قلت لك اننا سنقوم برحلة ؟

ــ نعم . انت فى حاجة اليها . هل انت مستعد للانصراف ؟..

ــ عندى بعض اشياء اريد ان اسويها . اذهب انت مع السلامة ياجو .

وأول شيء فعلته بعد انصرافه هو الاتصال تليفونيا بماري لكى

اقول لها اننى ساتاخر قليلا ، فبادرت تقول بلهفة :
ـ نعم . لكن اسرع . اسرع . اسرع . عندى اخبار عظيمة !
عظيمة !.. عظيمة !..
ـ الا يمكنك ان تقوليها الآن ياحبيبتى ؟ ..
ـ لا . اريد أن ارى وجهك اولا ! ..
لبست معطفى وقبعتى واطفات انوار المحل وجلست فوق المنصة مدلى الساقين . كان الهدوء سائدا ، وهو الهدوء الذى كنت بحاجة اليه . وشعرت فى جلستى محشورا بين مسجلة النقد وبعض الأرفف بجسم مكتل يخزنى اسفل ظهرى . ولما تحسست جبينى عثرت على « تعويذة الحظ » التى كنت وضعتها ونسيتها . لقد اخرجتها الآن ورفعتها بين يدى وجعلت أحدق فيها . خطر بالأمس اننى فى حاجة اليها . فهل ترانى نسيت اعادتها الى مكانها ، أم ان احتفاظى بها لم يكن مصادفة ؟ لا أعرف .
لم أكن بحاجة الى التفكير بقدر ما كنت بحاجة الى اعادة ترتيب افكارى . كنت بحاجة الى نوع من « البديل المؤقت » لكى الوذ به ريثما يتيسر لى ان اقيم البناء من جديد . كنت الآن أشبه بهذه الأرفف التى هاجمها « الزبائن » بضراوة وفتحوا فى صفوفها هذه الثغرات العميقة واصبحت فى حاجة الى ملئها وتسوية صفوفها لكى تتماسك وتنتظم من جديد . وهكذا وجدتنى أقول لها :
ـ فلنصل من اجل أصدقائنا الراحلين . لكن الباقى علينا نحن معشر الأحياء ... آه يا الفيو ماروللو ! اننى أتمنى لك الحظ والتوفيق والخلاص من الآم الجحود ونكران الجميل . انك ضحيت لأنك كنت أنت ضحية . وأردت بصنيعك أن تبقى شعلة الاستقامة مضيئة بعد ان اطفئوا فيك الشعلة افسادا واغواء وتلويثا .
فهل أكون أهلا لحمل الشعلة حتى تبقى منارا مشرقا وسراجا وهاجا ؟ ..

الفصل السابع عشر

كنت أستطيع ان أشعر ببيتى وانا لازلت عند الناصية ، بيت آل هاولى . فى الليلة الماضية رقد البيت قابعا خانعا فى الظلمة ، ولكنه بدا هذه الليلة يشع انفعالا . فالبيت ، مثل حجر الأوبال الكريم ، يتلون بالوان اليوم . والواقع ان مارى لم تكد تسمع وقع خطواتى فى الممشى الخارجى حتى اندفعت الى الباب الأمامى كشعلة ملتهبة ، قائلة :

ــ لايمكنك أن تتصور ابدا !

ــ قولى ياحبيبتى ماعندك ، بلا مقدمات تمثيلية .

ــ ان مارجى هى احسن صديقة فى الدنيا كلها . انها ستشرف على الأولاد لكى نقوم برحلتنا وحدنا .

ــ هل هذه خدعة ؟ ..

ــ انني لم أطلب منها . انها تطوعت .

ــ انهم سوف يأكلونها حية ! ..

بل انهم مفتونون بها . انها ستأخذهم الى نيويورك بالقطار يوم الأحد ، وتبقى معهم الليل فى شقة صديقة ، ويوم الاثنين يشاهدون حفلة رفع العلم الجديد بانضمام الولاية الخمسين فى مركز روكفلر ، ويتفرجون على الاستعراض ، وكل شىء .

ــ اننى لا أكاد أصدق .

ــ أليس هذا شيئا رائعا ؟ ..

ــ بل هو أروع شىء . ولذن فسوف نتمكن من الذهاب الى ضواحى مونتوك كما كنا نفكر .

ــ اننى اتصلت فعلا بالتليفون وحجزت غرفة لنا .

ــ هذا مذهل ! اكاد انفجر من الدهشة ! أشعر بأننى انتفخ !

وخطر لى ان اخبرها بحكاية المحل ، ولكن كثرة الأخبار المفرحة تؤدى الى التقلصات المعوية كما يقولون . ومن الخير ان انتظر واخبرها بعد الوصول الى وجهتنا .

وجاءت ايلين الى المطبخ متسللة ، قائلة :

ـ بابا . ان ذلك الحجر الوردي قد اختفى من الدولاب ! ..
ـ هو معى . فى جيبى . هاهونا . ولك ان تعيديه الى مكانه .
ـ انك اوصيتنا الا نأخذه بعيدا عن مكانه بأى حال ! ..
ـ ومازلت أوصيكم بهذا ، والموت جزاء من يخالف .
فانتزعته بحركة اقرب الى الشراهة وحملته بين يديها الى غرفة الجلوس .
ورايتعينى مارى مسلطتين على بنظرات غريبة مكتئبة ، وقالت:
ـ لمـــاذا اخذته يا ايثان ؟ ..
ـ من أجل الحظ ياحياتى ، وقد ثبت مفعوله !

الفصل الثامن عشر

أمطرت السماء يوم السبت ، الثالث من يوليو ، مطرا دسما أكثر من المعتاد . واخذنا نشق طريقنا بالسيارة فى الطرقات المبللة وفى غمار حركة المواصلات المتكاثفة وشعورنا أقرب الى الاحساس بالضياع كطيور اطلقت من قفصها فانتابها الروع عندما واجهتها الحرية .

قلت لماري وقد جلست معتدلة القامة :

ـ هل انت سعيدة ؟ .. هل انت مرحة ؟ ..

ـ اننى افكر فى الأولاد . ترى ماذا يفعلون الآن ؟

ـ كل ما يمكن أن تتصوريه ، الا ان يفكروا فيما نفعله نحن .

ـ اظنك على حق . سأحاول أن انسي واتسلى بالمناظر الطبيعية فى هذه المنطقة الجميلة من « لونج ايلاند » .

وكان البيت الخلوى الصغير الذى خصص لنا مؤلفا من غرفة واحدة نظيفة منسقة . وبعد أن تناولنا العشاء الذى امتزج بكثير من الشراب لم نستطع أن نغالب النوم الذى زحف الينا قاهرا غلابا بتأثير الرحلة الطويلة والاسترخاء الجم بعد طول كد وعناء . وكانت مارى أسبق منى ، كعادتها ، استسلاما لسلطان النوم .

واذا كان الفجر قد بزغ مقترنا برعد ، فاننى لم أسمعه . وانما فتحت عينى على طبيعة مشرقة ذهبية اختلطت فيها الوان الخلنج الزاهية بخضرة السرخس الباهتة وصفرة الكثبان الرملية مترامية حتى الأطلنطى التى كانت صفحته تتلألأ على البعد مثل صفحة من فضة مطروقة . وكان ثمة طريق يكسو بالحصى ينتظم هذه البيوت الصغيرة فى شبه قرية خلوية قامت فى قلبها قاعة كبرى للطعام يغشاها النزلاء جميعا .

وقصدت من فورى الى مكتب المدير وكان يحسبنا عند قدومنا من العشاق ، فقلت له :

ـ صباح الخير .

فسدد انفه الى قائلا :

ـ هل نمتم نوما هنيئا ؟ ..
ـ جدا . هل يمكن أن احمل صحفة افطار الى زوجتى ؟
ـ ان الأكل يقدم هنا فى قاعة الطعـــام ، من السابعة والنصف الى التاسعة والنصف .
ـ لـكن اذا حملتها بنفسى ...
ـ هذا مخالف للأصـــول هنا .
ـ ألا يمكن ان نخالفها مرة ؟ .. انت تعرف الظروف .
قلت هذه العبارة عامدا ، اذ كانت هى ما يشتهيه مثله ، فقال وقد شاع السرور فى وجهه :
ـ السيدة تشعر بالخجل . أليس كذلك ؟ ..
ـ انت تعرف مثل هـــذه الظروف .
ـ لا اعرف ما الذى يقوله الطباخ فى هـــذا ...
ـ اطلب منه وقل له هناك دولار ينتظره واقفا على حافته :
كان الطاهى يونانيا ، وقد وجد الدولار جذابا . وفى الوقت المحدد الفيتنى أحمل صفحة حافلة مكسوة بغطاء ، وقد زينتها فى الطريق بباقة من الأزهار البرية تجميلا لـمـادبة الافطار الملـكية التى حملتهـا الى حبيبة الروح . ولعلها كانت مستيقظة عنـــدما دخلت عليها ، ولـكنها فتحت عينيها وهتفت :
ـ انني اشم قهوة. آه. آه ! يا للزوج الحبيب! وازهارايضا !
ثم افطرنا وشربنا القهوة مرتين ، ومارى متكئة على وســـادة فى الفراش وقد بدت أكثر نضرة وبراءة من ابنتها .
وعندما حان الوقت الذى قدرته مناسبا قلت لها :
ـ استعدى للمفاجأة . عندى أخبـــار محزنة ومفرحة .
ـ هل اشتريت المحيط ؟ ..
ـ ان مارولو ضبط بتهمة دخول البلاد بطريقة غير شرعية ، وسيقومون بترحيله .
ـ هذا شنيع ! ماذا سنفعل . ماذا ستفعل انت ؟ ..
ـ انتهى وقت اللعب . انه باعنى المحل ـ أو بالأحرى باعه لك. فهو مالك على كل حال . وسيقوم بنقل الملـكية الي ، لانه يودنى. والواقع انه باعنى المحل نظير ـ ثلاثة آلاف دولار .
ـ يعنى ... يعنى ان المحل ملـكك الآن ؟ ..
ـ نعم .
ـ ولم تعد يائسا ! . . لم تعد يائسا ! ..

وانكفأت بوجهها على الوسادة وانخرطت فى بكاء من أعماق صدرها، كبكاء عبد رقيق قطعوا الطوق من حول رقبته .

تركتها وخرجت الى الساحة وجلست فى الشمس الى ان تمالكت ماري وغسلت وجهها ومشطت شعرها وارتدت ملابسها ونادتنى .

لقد بدت الآن مختلفة تماما . كانت رافعة الرأس شامخة . ولا عجب ، فقد اصبحنا من الأشراف مرة أخرى .

ـ ألا يمكن أن نفعل شيئا لمساعدة مستر مارواللو ؟ ..

ـ لايمكن .

ـ كيف حدث هذا ؟ .. من اكتشف امره ؟ ..

ـ لا أعرف .

ـ انه رجل طيب . ما كان يجب أن يفعلوا معه هذا . كيف كان مسلكه ؟ ..

ـ احتمل بكرامة وشرف .

وتمشينا على الشاطىء كما كنا نفكر أن نفعل ، وجلسنا بين الرمال ، والتقطنا الأصداف الصغيرة البراقة واراها كل منا لصاحبه، وابدينا اعجابنا بالطبيعة من بحر وهواء ، وضياء وشمس لطفت من حدتها الريح ـ وكأن الطبيعة كانت تستمع الى اطرائنا .

ولكن مارى بدت مشغولة البال . واحسبها كانت تريد العودة فى وضعها الجديد لكى ترى النظرة المختلفة فى أعين النساء ، والنبرات المتغيرة للتحيات فى شارع « هاى » . فهى لم تعد « مارى هاولى المسكينة ، التى تقوم بأعمال شاقة فى البيت» . لقد أصبحت مسز ايثان هاولى ، وسوف تظل كذلك على الدوام .

ومع ذلك فقد بقيت طول اليوم لأن ثمنه مدفوع . وتناولنا الغداء فى القاعة العامة ، وكانت حركاتها الرصينة ووقارها العادى شيئا خيب آمال صاحب النزل الذى كان اكثر انتعاشا بقدوم العشاق. وكانت خيبة أمله أشد عندما دنا من مائدتنا قائلا : ان هناك مكالمة تليفونية لمسز هاولى . فقلت لمارى :

ـ من يعرف اننا هنا ؟ ..

ـ مارجى بالطبع . اننى قلت لها من أجل الأولاد . آه ! يارب لايكون الآن ... أنت تعرف انه متسرع ! ..

وعادت وهى ترتعش قائلة :

ـ هل سمعت الخبر ؟ .. هل سمعت الراديو ؟ ..

ـ هل يمكنك أن تخبرنى بسرعة ؟ ..

ــ ان آلان فاز فى المسابقة ، ونال جائزة التفوق ، وساعة ، سوف يظهر فى التليفزيون ... هل يمكن أن تصدق هذا ؟.. خصية مشهورة فى العائلة ! ..
ــ لايمكن أن أصدق هذا ! ..
ــ بل صدق ! تصور ان ابننا واحد من خمسة أولاد فى الولايات لتحدة كلها ينال جائزة التفوق ، ويظهر فى التليفزيون ! ..
ــ وساعة أيضا ! ترى هل يمكنه أن يعرف الوقت ؟ ..
ــ إيثان ! اذا كنت تهزل هكذا ، فسوف يظن الناس انك غيور ن ابنك ! ..
ــ هذا من تأثير الدهشة فقط . كنت أظن ان أسلوبه فى الكتابة ثل مستوى أسلوب الجنرال ايزنهاور ! .. ان آلان ليس عنده سيطان الوحي ! ..
ــ أنا أعرفك يا إيثان . انك تحب دائما أن تتحامل على أولادك. كنك انت الذى تفسدهم . أريد أن أعرف ــ هل ساعدته فى تابة موضوع المسابقة ؟ ..
ــ ساعدته ؟ انه لم يدعنى حتى أراه ! وما هو شعور ايلين ؟
ــ انها فخورة مختالة مثل طاووس ! وكانت مارجي منفعلة تحمسة للدرجة انها كادت لا تستطيع الكلام . ان الجرائد تريد مل أحاديث معه ــ والتليفزيون . انه سيظهر فى التليفزيون . هل كرت انه ليس عندنا جهاز تليفزيون لكي نشاهده ؟ ..
ــ سيكون لنا جهاز غدا .
ــ صحيح يا إيثان ؟ .. نسيت انك الآن صاحب المحل . لابد ا أن نعود الآن . انهم سيعودون بقطار الساعة السابعة والثلث. جب أن نكون فى البيت لاستقباله .
واطرقت مارى برأسها برهة كأنما تصلى ، وقالت :
ــ انت تملك المحل ، وآلان أصبح شخصية مشهورة . من ان يصدق ان كل هذا يمكن ان يحدث مرة واحدة . يجب أن كون هناك عند وصولهم. اذهب لدفع الحساب بينما أحزم أدواتنا.

الفصل التاسع عشر

سلك ابني مسلكا متزنا . كان هادئا ولينا معنا . فلم يطلب ثأرا ، ولم يأمر باعدام . وانما تقبل التكريم الذي ظفر به ، والتهانى التى ازجيناها اليه قبول من يعتبر ان هذا حق له ، دون ما غرور ، وكذلك فى غير ما تواضع متكلف . وما لبث ان تقدم الى مقعده فى غرفة الجلوس وادار جهازه الاذاعى الصغير قبلما تم اشتغال كل « الصواريخ » المائة التى اوقدناها احتفاء بفوزه فى المسابقة الوطنية الكبرى . ولقد بدا واضحا انه اغتفر لنا كل مضايقاتنا وتدخلاتنا وتطفلاتنا . والحق اننى لم اشهد فى حياتى ابنا يتقبل العظمة بمثل هذه السماحة .

كانت هذه ليلة العجائب حقا . واذا كان صعود آلان السهل الى السماء باعثا على الدهشة ، فان رد الفعل من جانب ايلين كان أبعث على الدهشة والعجب . كنت اظن من دراستى لأطوارها عن كثب انها سوف تبستسلم لدواعى الغيرة والحسد ، ولكنها خيبت ظنونى ، اذ كانت هى المحتفية الأولى بفوز اخيها ، وكانت هى التى حكت لنا القصة وقالت انهم بينما كانوا جلوسا فى شقة أنيقة فى الشارع السابع والستين بعد أمسية ساحرة ، وهم يشاهدون التليفزيون ، واذا نبأ فوز آلان يذاع فى نشرة الأخبار . والواقع ان ايلين كانت هى التى اخذت تسهب فى وصف ما اعقب ذلك من فرحة غامرة وانفعالات باهرة ، فى حين جلس آلان وهى تحكى هذا صامتا هادئا ، خصوصا عندما شرحت لنا كيف انه سوف يظهر فى التليفزيون مع الأربعة الفائزين الآخرين ويقرأ موضوعه الفائز ، بينما يسمعهم ويشاهدهم الملايين من المواطنين . وفى خلال ذلك كانت مارى سعيدة قريرة العين لا تنفك عن الاطراء والتحدث بالنعمة ، ولكننى عندما نظرت الى ناحية مارجى ألفيتها واجمة ومنطوية على نفسها شيئا ما ، كما فعلت يوم قراءتها للطالع ، ولم تلبث ان استأذنت فى الانصراف رغم الحاحنا عليها فى البقاء .

وقالت مارى على الأثر :

ـ اننا لم نخبرها بموضوع المحل .
ـ دعى ذلك الآن . لا نريد ان نسلب « صـــاحب الفخامة » حقه الـكامل فى الاستئثار بالليلة لنفسه . اين ايلين ؟ ..
ـ انها ذهبت للنوم . وهذا بعد نظر منها . وانت يا آلان . هذا يوم عظيم لك ولنا . الا ترى الآن ان الوقت قد حان للنوم؟
فأجاب آلان متعطفا : اظن اننى ساجلس هنا فترة .
ـ لـكنك محتاج الى الراحة . فنحن الآن فى منتصف الليل .
ـ انا مرتاح هكذا .
ولمـــا استنجدت بى مارى قلت لها :
ـ ليكن ما يريد ياعزيزتى . انه سوف ينام حتى الظهر غدا . اما انت وانا فعلينا أن نستيقظ فى الساعة السادسة .
وكانت مارى أول النائمين . وبعد نصف ساعة سمعت صرير درجات السلالم ، فعلمت ان ابننا المشهور قد صعد للنوم .
وبينما كنت اراقب البقع الحمراء وهى تتراقص امام عينى فى الظلام ، سمعت ايلين وهى تتسلل هابطة السلالم فلم اتبعها هـــذه المرة ، اذ سمعت بعد قليل صرير المفتاح فى قفل الدولاب ، وعلمت أن ابنتى عادت مرة أخرى الى ضم « الحجر السحرى » الى صدرها لـكى يعطيها شحنة عاطفية .



ذهبت الى المحل فى الصباح مبكرا . وقد فتحت مظروف البنك الذى أعطانيه مستر بيكر وأخرجت منه ثلاثين ورقة بنكنوت من فئة المائة دولار وتركت العشرين ورقة الباقية . ان الثلاثة آلاف دولار سوف تكون رصيد الأمان لـكى أتمكن من موازنة اقتصاديات المحل . اما الألفا دولار الباقية فسأعيدها الى حســـاب مارى فى البنك ، على أن اعيد الثلاثة آلاف بعد استقرار الأعمال . وقد وضعت مبلغ الثلاثة آلاف دولار فى المحفظـــة الجديدة حتى بدت منتفخة فى جيبى الخلفى . وانتقلت بعد ذلك الى المخزن حيث جئت منه بصناديق المعلبات وفتحتها واخذت أكدسها فى الأرفف الخاوية، بينما دونت فى ورقة كافة السلع التى كان على أن اطلبها .
ولابد ان السنين تختلف بعضها عن بعض فى المناخ وفى «المزاج» مثلما تختلف الأيام أيضا . فقد كان عام ١٩٦٠ هذا عام التغيير ـ العام الذى طفت فيه المخاوف المـكنونة الى السطح ، ولم يعـد السخط خامدا بل أخذ يتغير تدريجا مستحيلا الى غضب . ان

هذا الذى وصفت لم يكن احساسي انا فقط ولا احساس «بايتاون» ايضـا ، بل كان الطابع القومى العام . فمن قريب سـوف تعلن الترشيحات لانتخابات الرئاسة ، وبدا الجو كله مشحونا بسخط يوشك ان يتحول الى غضب بما يجلبه الغضب من انفعالات . بل لم يكن هذا حال الأمة الأمريكية وحدها ، فقـد كان العالم كله يضطرب بالقلق والتوتر وعدم الاستقرار كلما تطور السـخط الى غضب وبدا الغضب يلتمس متنفسا له فى العمل ـ اى عمل طالما كان طابعه العنف . كانت افريقيا وامريكا الجنوبية واوربا وآسيـا والشرق الأوسط كلها مياءات للقلق والتوتر وعدم الاستقرار مثل خيل السباق عندما تقف لدى الحاجز متحفزة للانطلاق

ولقد كنت على يقين ان يوم الثلاثاء هذا الخامس من شهر يوليو سوف يكون يوما مشهودا أكثر من سائر الأيام ، وكان احساسى يحدثنى بأنه ستقع فيه أحداث غير عادية ، وكان منها على سبيل المثال ماحدث من حضور مستر بيكر الى البنك قبل موعده بساعة. فقد طرق على باب المحل الأمامى قبل أن افتح للعمل ، فأدخلتـه واغلقت الأبواب . وقال من فوره :

ـ يا للشناعة ! .. انني كنت معزولا عن العالم . وقد علمت حالـا سمعت .

ـ اية شناعة تقصـد ياسيـدى ؟ ..

ـ عجبا ! اقصد الفضيحة ! ان هؤلاء الرجال هم أصدقائى ، أصدقائى القدماء . لابد لى ان افعل شيئا .

ـ انهم لن يستجوبوا قبل الانتخابات ـ لقـد وجهت اليهم الاتهامات فقط .

ـ أعرف هذا . الا يمكن ان نصدر بيانا عن اعتقادنا فى براءتهم ؟ ولو اعلانا مدفوع الأجر اذا لزم الأمر .

ـ فى اى جريدة ياسيدى ؟ ان جريدتنا لن تصـدر قبـل يوم الخميس .

ـ على أى حال لابد من عمل شيء .

ـ صدقنى يا سيدى .

كان هذا الكلام اقرب الى الشكليات ، ومع ذلك فقـد بدا مشحونا بالقلق حقا . وعاد يقول :

ـ ان الجماعة المتطرفة المجنونة سوف تفسد انتخابات البلدة ما لم نفعل شيئا . لابد لنا من تقديم مرشحين جدد . ان ماحدث

لأصدقائنا شيء بشع ، لكنهم أول من يعرف اننا لن ندع الجماعة المتطرفة تسيطر على الامور .
ــ انهم فى غم وحزن . ولم يجدوا وقتا للتفكير والتدبر . هل جاء ماروللو ؟ ..
ــ انه أرسل صديقا . وقد اشتريت المحل بثلاثة آلاف دولار.
ــ هذه صفقة . من أرسله عنه ؟ المافيا ؟
ــ مندوب الحكومة الاتحادية . وبدا أن ماروللو كان يودنى . ورأيته يقطب فجأة مفكرا ، ثم قال :
ــ لماذا لم افكر فى هذا ؟ انه الرجل المطلوب . من اسرة طيبة ، وأهل للثقة ، ومن الملاك ورجال الأعمال ، وشخصية محترمة ، وليس لك عدو فى البلدة . لاشك انك أنت الرجل المطلوب .
ــ أى رجــل ؟ ..
ــ ادارى البــلدة .
ــ اننى لم أكن من رجال الأعمال الا منذ يوم السبت .
ــ انت تعرف ما أقصد . يمكننا أن نجمع حول شخصــك وجوها جديدة محترمة .
ــ من بائع فى محل بقالة الى ادارى البلدة ؟ ..
ــ لم يفكر أحد قط أن يكون سليل اسرة هاولى بائعا فى محل بقالة.
ــ كان هذا تفكيرى ؟ وتفكير مارى .
ــ لكنك لست كذلك . يمكننا اعلان هذا الاختيار اليوم قبل أن تقرر الجماعة المتطرفة المجنونة قرارها . اننى انصحك يا ايثان أن تبيع المحل . سوف تكون شخصية كبيرة القدر بما لايسمح بأن تقف لخدمة « الزبائن » . الم تسمع شيئا عن داني ؟
ــ لا حتى الآن .
ــ ما كان يجب أن تعطيه نقودا .
ــ ربما . كنت اظن اننى اعمل لصالحه . قل لى يامستر بيكر . ما الذى حدث للسفينة « بيل آدير » ؟ ..
ــ ما الذى حدث ؟ .. انها احترقت وغرقت فى الميناء .
ــ كيف حدث هذا ياسيدى ؟ ..
ــ غريب أن تسأل فى هذا الوقت !.. انا لا اعرف الا ماسمعته. كنت وقتها صغيرا ولا اتذكر . ان تلك السفن العتيقة كانت مشبعة بالزيوت . ولابد ان واحدا من البحارة القى عود ثقاب . وكان جدك السكابتن هاولى هو الربان. واظن انه كان وقتها على الشاطيء.

ـ وهل وجدت مشكلة بخصوص التامين ؟ ..
ـ ان شركات التامين ترسل عادة محققين من جانبها . ولـكن بعد وقت حصلنا على مبلغ التامين . اسرة هاولى واسرة بيكر .
ـ كان جدى يظن ان النار اضرمت فى السفينة عمدا .
ـ ولمـاذا ، بحق السماء ؟ ..
ـ الحصول على قيمة التامين . فان صـناعة صيـد الحيتان واستخراج زيوتها كان قد فات أوانها .
ـ لماذا تنبش هذه الأشياء القديمة يا ايثان ؟ لقد حدثت منذ زمن طويل .
ـ من البشاعة حرق سفينة . انها كجريمة قتل . انني ساعمل على انتشال قاعها من البحر يوما ما . انني اعرف مكانه . على مسافة نصف كابل بحرى من الشاطىء .
ـ ولمـاذا تفعل هـذا بالله ؟ ..
ـ لـكى ابحث ان كان ماحدث لم يكن مدبرا . على كل يحسن ان تذهب الآن الى البنك لـكى تبارك فتح الخزانة . واريد انا ان افتح المحل ايضا .
ولم يكد بيكر ينصرف حتى جاء بيجارز ايضا . ولابد انالمسكين كان يراقب فى الخارج وينتظر انصراف بيكر . وقد بادرنى على الفور قائلا :
ـ هل فـكرت فى التراحى ؟ ..
ـ اظن ان ستة فى المـائة أحسن .
ـ لا أعرف ان كانت ادارة محلات « ب . ب » سوف تقبل .
ـ المسالة متروكة لها .
ـ ربما يوافقون على خمسة ونصفه فى المـائة .
ـ وربما تدفع انت النصف فى المـائة الباقى .
ـ يا لطيف ! كنت اظنك سـاذجا . هل يمكن ان آخـذ « الطلبية » الـكاملة اليوم ؟ ..
ـ غدا أفضـل و « طلبية » اكبر .
ـ ماهذا ؟ لابد انك امسكت رئيسك من عنقه ! هل تظن ان هـذا فى قدرتك ؟ ..
ـ انتظر غدا لترى .

***

كانت حركة العمل خفيفة يوم الثلاثاء وهذا بالمقارنة بيوم السبت

الماضي . فقد اخذ الناس مهلة كي يتكلموا عن « الفضيحة » ، قالوا انها بشعة ، محزنة ، مخزية ، ولـكن مسلية ايضا . والحق انهم لم يلابسوا فضيحة منذ مدة طويلة . ولم يكن اهتمامهم موجها الى المنافسات الانتخابية في البلاد عامة بقدرماكان مركزا في «نيوبالياون» لمعرفتهم بالرجال الذين راحوا يرقصون فوق قبورهم .

وحوالي الظهر جاءني ستوني سميث رئيس نقطة الشرطة وكان يبدو متعبا محزونا . وقد أخرجت المسدس القديم من علبة الزيت وقدمته له قائلا :

ـ خذه بعيدا عني . انه يثير اعصابي .

ـ امسحه اولا . انه سلاح قديم بطل استعماله . قل لي ، هل عندك أحد يمكن يحل محلك هنا ؟ ..

ـ لا ..

ـ اين مارولو ؟ ..

ـ خارج البلدة .

ـ اظن انه لابد أن تغلق المحل بعض الوقت .

ـ لمـــاذا ؟ ..

ـ نريد أن تذهب معنا الى الأرض المملوكة لداني تيلور والتى كان فيها قصر العائلة القديم قبل أن يتهدم .

ـ داني تيلور ؟ .. ماذا جرى ؟ ..

ـ يؤسفني أن اقول اننا عثرنا في بدروم المنزل على صـــندوق ويسكي فيه زجاجتان فقط خاليتان ، وزجاجة حبــوب منومة . والظاهر انه بقى في هذا المـكان المهجور مدة طويلة وتعرض وجهه للنهش ـ ربما من القطط . هل تعرف علامات في جسده يمكن بها أن تتعرف عليه ؟ ..

ـ لا أريد أن انظر اليه .

ـ ومن يريد ؟ هل تعرف علامات ؟ ..

ـ اتذكر وجود اثر جرح من اسلاك شائكة فوق ركبته اليسرى. ووشم قلب مثل هذا ، أحدثناه ونحن صبيان بشفرة حلاقة وصبغناه بالحبر .. ان الوشم لايزال ثابتا عندى ، كما ترى .

ـ هل من علامات أخرى ؟ ..

ـ نعم . هناك ايضا اثر جرح كبير تحت ذراعه اليسرى .

ـ اظن ان هذه كلها علامات كافية . ولا اظن اننا سنحتاج الى الذهاب . سندع المحقق يتأكد بنفسه . وسيكون عليك أن تؤدى

الشهادة من هذه الجروح اذا كان هو داني تيلور .

ــ ليكن . لكن لاتدعني أراه ياستوني . انه كان ... انه كان صديقي ، كما تعرف .

ــ بالتأكيد . قل لي يا ايثان . هل صحيح ما سمعته عن ترشيحك لوظيفة اداري البلدة ؟ ..

ــ هذا خبر جديد في سمعي . هل يمكنك أن تبقى هنا دقيقتين، ريثما أعبر الشارع وآتي بشراب ؟ ..

ــ آه ! انت معذور . اذهب بسرعة . لابد ان اجاري اداري البلدة الجديد .

وجئت بالشراب . وعندما انصرف ستوني وضعت لافتة على المحل كتبت فيها « مغلق حتى الساعة الثانية » ، ثم اغلقت الأبواب وأسدلت الستائر .

وجلست في محلي الجديد ، حليف وحدة موحشة تعتصر قلبي .

الفصل العشرون

فى الساعة الثالثة الا عشر دقائق خرجت من باب المحل الخلفى ودرت حول الناصية ودخلت البنك من الباب الأمامى . ولما رآنى جومورفى تطلع الى بتحفظ قائلا :

ــ لكن أتكلم عن ذاتى يا ايثان . أنا أعرف انه كان صديقك الحميم .

ــ شكرا .

وعندما رآنى مستر بيكر قال لى بهدوء :

ــ هل تخلو لحظة يا ايثان ؟ ..

لم أجد فائدة من تأجيل المواجهة ، فدخلت الى مكتبه. وأغلق الباب . وبعد أن جلست قال لى :

ــ حادث محزن .

ــ نعم .

ــ أنا متأكد انك كنت تنوى الخير بالنسبة له .

ــ كنت أظن انه سوف يستفيد من الفرصة

ــ بصرف النظر عن المأساة والخسارة ، هناك مشكلة . هل تعرف ان كان له أقارب ؟ ..

ــ لا أظن .

ــ كل انسان عنده مال يكون له أقارب .

ــ لم يكن عنده مال .

ــ كان عنده الأرض الواسعة المتبقية من بيت أسرته المحترق .

ــ أحقا ؟ .. أرض فضاء خربة وبدروم كالقبر ! ..

ــ اسمع يا ايثان . قلت لك من قبل اننا نخطط لاقامة مطار يخدم الاقليم كله . ان الأرض الفضاء مستوية السطح . واذا نحن لم ننتفع بها فسوف نتكلف الملايين لتمهيد مدارج للمطار بين التلال . وحتى لو لم يكن له ورثة ، فسوف تنتقل المسألة الى المحاكم ، وتضيع شهور .

ــ مفهوم . يحسن الآن أن أعود الى المحل .

ــ هو محلك الآن .
ــ احقا ؟ نسيت . انني اتعود على هذا بصعوبة .
ــ نعم . تنسى . ان النقود التى اعطيتها له كانت نقود ماري .
انها لن تراها بعد الآن . انك بعثرتها .
ــ كان داني يود ماري . وكان يعرف ان النقود لها .
ــ ويكفيها هذا فخرا !
ــ انه فعل شيئا حسبته مزاحا . انه اعطاني هاتين الورقتين .
وابرزت من جيبي الداخلي الورقتين المشهد عليهما ، وكنت اعرف انني سأبرزهما يوما على هذه الصورة .
بسط مستر بيكر الورقتين فوق مكتبه ونظر اليهما . رايت عضلات اذنيه تختلج وهو يقرأ . وبعد أن أعاد القراءة وتطلع الى ، رايت الخوف باديا فى هيأته . لقد رأى أمامه شخصا لم يكن يشعر بوجوده . ومضت فترة قبلما استطاع أن يتمالك ويتوازن ، فقال بلهجة واقعية :
ــ ما هو الثمن الذى تطلبه ؟ ..
ــ واحد وخمسون فى المائة .
ــ من ماذا ؟ .
ــ من الهيئة التى ستقوم بمشروع المطار ، او الشركة ، او سمها ما شئت .
ــ هذا مضحك .
ــ انت تريد مطارا . والمطار الوحيد الصالح ملكى .
راح يمسح زجاج نظارته . ونظر الى كل مكان حوله الا نحوى .
واخيرا قال :
ــ هل تدبرت ما تفعله الآن يا ايثان ؟ ..
ــ نعم .
ــ وهل تشعر انك تفعل شيئا طيبا ؟ ..
ــ اظن ان شعورى كشعور الرجل الذى قدم له زجاجة ويسكى وحاول استدراجه لتوقيع الورقة .
ــ هل اخبرك بهذا ؟ ..
ــ نعم .
ــ انه كذاب .
ــ ربما . وربما كانت هذه الاوراق زائفة .
وسحبتهما من امامه برفق وطويتهما واعدتهما الى جيبى فقال :

ـ هذه الوثيقة قانونية ، مؤرخة ، ومشهد عليها ، وواضحة . ربما كانت نيته ان يعطيك درسا اخلاقيا فى التضحية والايثار.
ـ يامستر بيكر . لم يوجد فى اسرتى احد حرق سفينة ! ..
ـ سوف نتكلم يا ايثان . سوف نقوم بأعمال . سوف نكون اموالا . ان بلدة نامية سوف تثب الى العمران من حول الأرض الفضاء الخربة . اظن انه لابد لك الآن أن تصبح اداري البلدة .
ـ لايمكنني ياسيدي . ان هذا سوف يشكل تضاربا فى المصالح. اناسا محزونين الآن قد اكتشفوا هذا بعد فوات الأوان .
تنهد ، وكأنما خشى ان يثير كلامي شيئا يعتلج فى صدره. ولم البث أن نهضت ووضعت يدى على مسند المقعد وقلت له :
ـ سوف تكون أحسن حالاً ياسيدى عندما تعتاد على الحقيقة الواقعة ، وهى اننى لست مغفلاً ساذجا يسهل ابتلاعه .
ـ لماذا لم تشركنى فى اسرارك ؟ ..
ـ ان شريك الخفاء فى خطر .
ـ اذن تشعر انك ارتكبت جريمة .
ـ لا . ان الجريمة هى التى ارتكبها غيرى . لابد لى الآن من فتح المحل ، حتى ولو كان محلى الخاص .
وكانت يدى على مقبض الباب عندما سألنى :
ـ من وشي بمارولو ؟ ..
ـ اظنك أنت ياسيدى .
فوثب على قدميه ، بيد اننى اغلقت الباب خلفى وعدت الى محلى

الفصل الحادي والعشرون

كان بيت هاولي متلألأ بالأنوار والزخارف عندما عدت . وعرفت ان المناسبة هي الاحتفاء بفوز آلان في المسابقة القومية واعداد عشاء عائلي خاص لهذه المناسبة الفذة .

وعندما مررت بغرفة آلان وفتحت الباب وجـدته واقفا امام المرآة وقد اصطنع شاربا اسود صغيرا من الأصباغ ولبس ربطة عنقي المنقطة . ولـكنه ارتبك عند دخولي وقال معتذرا :

ـ انني اتمرن على الدور .

ـ الحقيقة يابني انني في غمرة الفرح نسيت ان اقول كم انا فخور بك .

ـ هي ... هي مجرد بداية .

ـ بصراحة ، لم اكن اظن انك كاتب قدير مثل رئيس الجمهورية. انني في الحقيقة مندهش بقدر ما انا مسرور. متى ستقرا موضوعك امام العالم ؟ ..

ـ يوم الأحد ، الساعة الرابعة والنصف . وسأذهب الى نيويورك . ستقوم طائرة خاصة بنقلي .

ـ حسنا . هي قفزة كبيرة فعلا اذ تكون واحدا من خمسة في البلاد كلها .

وبدأ يزيل الشارب . ورايته والدهشة تأخذ بمجامعي ان معه مجموعة كاملة من أدوات الماكياج .

قلت له : حـدث كل شيء لنا مرة واحدة . هل تعرف انني اشتريت المحل ؟ ..

ـ نعم . سمعت .

ـ حسنا . عندما تنتهي الضجة ساحتاج الى مساعدتك .

ـ ما قصدك ؟ ..

ـ قلت لك قبل الآن . لـكي تساعدني في المحل .

ـ لايمكنني ان افعل هـذا .

ـ لايمكنك ماذا ؟ !

ـ عندي مواعيد الأحاديث اذاعية وتليفزيونية متعددة . وهناك مســابقة « فوازير » جديدة ساشترك فيها . وهكذا ترى انني مشغول وليس عندي وقت .
ورش راسه بسائل من مضخة شعر . فقلت له :
ـ اذن فقد جددت لنفسك المستقبل ، اليس كذلك ؟ ..
ـ هي مجرد بداية ، كما قلت لك .
ـ لا انوي ان اطلق كلاب الحرب هذه الليلة . سوف نتناقش في هــذا فيما بعد .
ـ هناك شخص من محطة اذاعة «ن.ب.سي» حاول ان يتصل بك تليفونيا . ربما كانت المسالة متعلقة بعقد يريدون عمله معي ، لانني دون سن الرشد .
ـ هل فـكرت في المدرســـــة ياولدي ؟ ..
ـ ومن يحتاج الى المدرسة اذا كان أمامه عقد ؟ ..
اسرعت بالخروج واغلقت الباب خلفي ، وفي الحمام أسرفت في انزال المــاء البــارد على جسدي لــكي أكبح جماح غضبي الجائح . وعنــدما خرجت نظيفا لامعا متانقا متعطرا بعطر ماري عادت الى سيطرتي على اعصابي .
وجلسنا الى الوليمة التي كانت حافلة بالدجاج المشوي والفطائر . وقد طلبت ان نشرب نخب « البطل » متمنيا له الحظ السعيد ، واختتمت مرددا :
« وبعد شــتاء احزاننـــا الذي اكفهر واستطال
جاء الآن صيفنــــــا المشرق بعراض الآمال »
فقالت ايلين : هــذا كلام شكسبير .
ـ نعم . لكن من اية مسرحيـــة ؟ .. ومن القائل ؟ .. وفي اية مناســـبـــة ؟ ..
فلم يرد أحد .
وبعد ان ساعدت في نقل الأطباق الى المطبخ قالت ماري التي كانت لاتزال تحت تاثير النشوة بعد ان لاحظت ضيقي الـكامن :
ـ لا تضايق نفسك . سيعرف كل شيء في وقته . ارجو ان تــكون صبورا معه .
ثم اضافت بعد برهة :
ـ هناك رجل اتصل بك من نيويورك . اظن ان المسالة بخصوص

الان . أليس من المثير أنهم سيرسلون اليه طائرة خاصـــة . انني لا اكاد اصدق انك الآن مالك المحل . والجميع يتكلمون عن قرب اختيارك اداري البلدة .

ــ لن يكون هذا . امامي مشروع أعمال سيجعل هذا مستحيلا. انا مضطر للخروج الآن ياحبيبتي . عندي اجتماع .

ــ ربما يجعلني هذا اتمنى عودتك بائعا في المحل . كنت وقتها تبقى في البيت كل ليلة . ماذا نقول للرجل اذا جاء مرة ثانية ؟..

ــ يمكنه أن ينتظر .

ــ انه لم يقبل هـــذا . هل ستتأخر ؟ ..

ــ لا أعرف . المسألة تتوقف على الظروف .

ــ خذ معك معطف المطر .

ــ بالتأكيد .

لبست قبعتي وخرجت الى الليل المظلم . كنت اريد الميناء القديم و « المختلى » . فيهما عالم خاص اعيد فيه بين الموج والمد ترتيب افكاري واسوى شغث نفسي . وفي الطريق رأيت الشرطي ويلي جالسا في سيارته في دوريته الليليـــة ، وما ان مررت به حتى بادرني قائلا :

ــ اسمع يا ايث . هناك شخص كان يبحث عنك . شخص في سيارة كريزلر كبيرة لها ســائق خاص .

ــ وما الذي يريده ؟ ..

ــ لا اعرف . سألني ان كنت شاهدتك . فلم اقل له شيئا .

ــ انت تستحق هدية ياويلي .

ــ اذا رأيت هذا الشخص، فهل اقول له انك ستعود الى البيت؟

ــ قل له ان يأتي الي المحل غدا .

ــ «كريزلر امبريال ».، ابن اللئام ! طويلة في مثل اللوري !

وصادفت جو مورفي واقفا على الرصـــــيف أمام مطعم ومقهى فورماستر ، ينظر حوله مترددا متحيرا . فقلت له :

ــ فكرت انك ستذهب الي نيويورك لأخذ زجاجة مثلجة .

ــ الجو خانق ، ولم يساعدني قلبي على ذلك . تعال ندخـــل ونشرب يا ايثان . انني أشعر بغم .

ــ الجو خانق لايساعدنا كما قلت .

ــ يا للنحس ! اذا ركب الانسان ، فلا مكان يذهب اليه ، ولا صديق يجالسه !..

ـ يجدر بك ان تتزوج .
ـ وهنا يصعب الانيس والجليس ! ..
ـ ربما كنت على حق .
ـ بل على حق كل الحق . ليس فى الدنيا من يعانى الوحدة اكثر من المتزوج ! ..
ـ وكيف تعرف ؟ ..
ـ اننى اراقبهم . وامامى واحد منهم . ليس امامى الان من جليس سوى ساقى البار. سوف أسرد فى سمعه الحلقات الكئيبة لحياة أعزب ضائع . ولن يمنحنى سمعه الا بحساب ـ أو بالحساب! الى اللقاء يا ايثان . اذهب فى رعاية الله . هـــذا ما يقولونه فى المكسيك ! ..
ولم أكد ابتعد حتى لمحت السيارة الكريزلر تنعطف وتقف عند ناصية بيت هاولى القديم ـ اى بيتى ـ وكان شكلها اقرب الى عربة الموتى منه الى سيارة لورى . كانت سوداء ولكن بغير لمعان بسبب قطرات المطر ورشاش الشحوم المتطاير من الطرقات .
عدت أدراجي ويممت شطر سيارة . فرأيت رجلا بقبعة سائق من خلال الزجاج الأمامى . وعندما نقرت بأصابعى على الزجاج انحدر زجاج النافذة بحركة كهربائية ، وشعرت بلفح لكييف هواء يهب على وجهى .
قلت : انا ايثان هاولى . هل تبحث عنى ؟ ..
وعلى الاثر انفتح باب السيارة تلقائيا وخرج رجل نحيل أنيق الثياب ، وقال لى :
ـ انا داتسكومب ، مندوب تليفزيون بروك وشوين . أريد ان اتكلم معك .
ونظر الى ناحية السائق واردف :
ـ ليس هنا . هل يمكن أن ندخل ؟ ..
ـ اظن . اعتقد ان الجميع ناموا . واذا تكلمت بهدوء ...
وسرنا فى الممشي الحجرى بين الحشائش المبتلة . وكان الضوء الليلى ينبعث من الصالة . ولما دخلنا اضأت نور مصباح القراءة فوق المقعد الكبير الخاص بى .
كان السكون يسود ارجاء البيت ، ولكنه بدا لى سكونا غير طبيعى ، مشوبا بالتوتر .

قلت له ؟

ــ لابد ان المسألة هامة حتى تحضر في هذا الوقت المتأخر .

ــ هو هذا . اننا نريد أن نبقي هذه المسألة محصورة بيننا . ان هذه السنة كانت سنة عصيبة كما تعرف ، خصوصا بعد فضائح « الفوازير » وغيرها وما اقترن بها من تحقيقات لجان الكونجرس. لابد لنا الآن ان نراقب كل شيء . هذه أوقات خطرة .

ــ بودى أن تقول لى ماذا تريد ؟ ..

ــ هل قرأت الموضـــوع الذى كتبه ابنك فى مســـابقة « احب امريكا ؟ .. »

ــ لا . لم أقرأه . انه أراد أن يفاجئنى .

ــ وهذا ما فعله. ولاأعرف كيف لم نضبطه ، ولكن هذا ما حدث.

وبسط أمامى ملفا أزرق الغلاف وأردف :

ــ اقرأ ما تحته خطوط .

جلست فى المقعد وفتحت الملف . كانت الـكتابة مطبوعة بآلة كاتبة شبيهة بحروف المطبعة . وقرأت ما يلى :

« احب امريكا »

« بقلم الان ايثان هاولى »

« ما هو الانســـان الفرد ؟ ذرة ، تكاد لا ترى بغير عدســـة »
« مكبرة ــ مجرد نقطة فوق سطح الـكون . لا حساب . له »
« فى الزمن ولو قدر ثانية بالقياس الى الأبدية التي لا بـــداية »
« لها ولا نهاية لها ولا حصر لها ، قطرة من ماء فى الأعمـــاق »
« العظمى تتبخر وتبددها الرياح ، ذرة من رمل سرعان ماتندمج »
« فى التراب الذى منه نجمت . فهل كائن بمثل هذا الصغر »
« وهذه الضآلة وهذا التلاشى وهـــذا الزوال يمكن أن يعوق »
« الزحف الدائب لأمة عظمى هى باقية على مدار أجيال وأجيال »
« قادمة ، ويقف فى وجه كل تسلسل ممتد من الذرارى المنبثقة »
« من اصلابنا وسوف يدوم ما دامت الدنيا ؟ فلتبذل لبلادنا كل »
« الرعاية والاهتمام ، ولنرتفع بأنفسنا الى مصـــاف الوطنيين »
« أولى العزة والنقاء والتجرد . ولندرأ عن وطننا كافة الأخطار »
« المحدقة المهددة . ما الذى نساويه ــ بل ما الذى يساويه اى »
« رجل ــ ان لم يكن على استعداد ولم ينبعث بقبول التضحية »
« بنفسه فى سبيل بلاده ؟ .. »

رحت اقلب الصفحات ، فرأيت الخطوط المدونة بالقلم الرصاص شائعة فيها من اولها الى آخرها وقال لى الرجل :
ــ هل تعرف هذه الكتابة ؟ ..
ــ لا . انها تبدو مألوفة . كأنها من كتابة القرن الماضى .
ــ هى كذلك . هى خطبة قالها هنرى كلاى ، عام ١٨٥٠ .
ــ وباقى الكتابة ؟ كلها من كلام كلاى ؟ ..
ــ لا . هى مقتطفات متناثرة ، بعضها من دانييل ويستر ، وبعضها من جيفرسون ، وبعضها من لنكولن . ولست أعرف كيف اجيزهذا كله . واعتقد انه بسبب الآلاف المؤلفة الواردة للمسابقة. الحمد لله اننا ضبطناها فى الوقت المناسب .
ــ لايبدو ان هذا اسلوب صبى .
ــ لا اعرف كيف حدث هذا . وكان يمكن ان يمر دون ان نلتفت اليه ، لو لم يصلنا البطاقة البريدية .
ــ بطاقة بريدية ؟ ..
ــ بطاقة بريدية مصورة ، بها صورة ناطحة السحاب « امباير ستيت بيلدنج ».
ــ من ارسلها ؟ ..
ــ شخص مجهول .
ــ ومن أين أرسلت ؟ ..
ــ من نيويورك .
ــ دعنى أنظر اليها .
ــ انها محفوظة تحت القفل احتمالا لأية مشاكل . انت لا تريد ان تقوم مشاكل ، أليس كذلك ؟ ..
ــ وماذا تريد ؟ ..
ــ اريد ان تنسى الموضوع كله . ونحن من جانبنا سوف نسقط الموضوع كله وننساه ، اذا رغبت .
ــ ليس هذا بالشىء الذى يمكن نسيانه بسهولة .
ــ اقصد انه مطلوب منك ان تقفل فمك ــ لا تسبب لنا اية مشاكل . انها كانت سنة سيئة . فى سنة الانتخابات يمكن أن ينبش اى انسان اى شىء .
اقفلت الملف واعدته اليه ، وقلت :
ــ لن اسبب لكم اية مشاكل .

فانفرج فمه عن أسنان لؤلؤية ناصعة ، وقال :
ــ كنت أعرف هذا . قلت لهم هذا . اننى تحريت عنك .
فوجدت سجلك طيبا . وانت من أسرة كريمة .
ــ هل يمكن أن تذهب الآن ؟ ..
ــ اننى أقدر مشاعرك .
ــ اشـــكرك .
ــ اننى لا أحب أن أذهب وأنت غاضب. ان مهنتى هى العلاقات العامة . يمكننا الاتفاق على شىء ، مثل منحة دراسية ، أو شىء من هذا القبيل ــ شىء له احترامه .
ــ لا . اذهب عنا فقط ، من فضلك .
ــ سوف ندبر هذه المسألة .
وتركته ينصرف وعدت الى الجلوس واطفـــأت النور وجلست انصت الى البيت . كان يخفق مثل قلب ، ولعله كان قلبى أو صرير البيت العتيـــق . وبدا لى أن أذهب الى دولاب الأسرة وأخرج «تعويذة الحظ» لأضعها فى يدى ــ بل وقفت لكى أفعل هذا.
دلفت الى غرفة ايلين واضأت النور . وجـــدتها مكورة تحت الغطاء ورأسها تحت الوسادة . ولـــما حاولت رفع الوسادة تشبثت بها حتى اضطررت لنزعها عنوة . فرأيت خيطا من الدم يســـيل من زاوية فمها .
قالت : انزلقت فى الحمام .
ــ ظاهر . هل أصابتك شـــــــديدة ؟ ..
ــ لا أظن .
ــ بكلمات أخرى ، ليس هـــــــذا من شأنى .
ــ اننى لا أريد أن يأخذوه الى السجن ! ..
ووجدت آلان جالسا على حافة سريره ، عاريا الا من بنطـــلون قصير . وبدت عيناه كعينى فأر حوصر ، فاستعد لمقاتلة المكنسة .
ــ الجبان القذر ! ..
ــ هل سمعت كل شىء ؟ ..
ــ سمعت ما فعله ذلك الجبان القذر .
ــ وهل سمعت بما فعلته أنت ؟ ..
انبرى الفأر المحاصر الى الهجوم ، قائلا :
ــ وماذا يهم ؟ .. كلهم يفعلون هـــــــذا .

ـ هل تؤمن بهذا ؟ ..

ـ الا تقرأ الجرائد ؟ .. كلهم حتى اكبر شخصية ـ ما عليك الا أن تقرأ الجرائد . ان كنت متمسكا بالفضائل فما عليك الا قراءة الجرائد . لايمكن ان أحتمل ذنوب الجميع . أنا لايهمنى شيء . فقط ذلك المكان القذر .

استيقظت مارى . ورايتها جالسة على حافة فراش ايلين. انها صخرة عاتية ، لا تتأثر بشيء ، ولاتهتز من شيء . لابد انها انصتت ايضا الى ما دار . وقالت لى :

ـ هل تأتى لكى تنام يا ايثان ؟ ..

ـ ليس الآن ، ياحبيبتى .

ـ هل تخرج مرة ثانية ؟ ..

ـ نعم . لكى امشى .

ـ انت محتاج الى الراحة . لايزال المطر يسقط . هل لابد من خروجك ؟ ..

ـ نعم . هناك مكان اعرفه . لابد أن اذهب اليه .

ـ خذ معطف المطر . انك نسيته قبل الآن .

ـ نعم ياحبيبتى .

لم اقبلها وهذا الجسد الصغير مكور فى الفراش . وانما لمست منكبها ووجهها ، فكانت كصخرة رابضة .

ذهبت الى الحمام برهة لآخذ علبة شفرات .

وما كدت أهم بأخذ معطفى من الصالة امتثالا لمارى حتى فوجئت بايلين تتعلق بى وتدس انفها الدامى فى صدرى وجسدها الغض يرتعد ، وقالت لى :

ـ خذنى معك .

ـ لايمكن يا « عبيطة » . لكن اذا جئت معى الى المطبخ فسوف اغسل وجهك .

ـ خذنى معك . انك لن تعود .

ـ ماذا تقولين ؟ .. طبعا سوف أعود . اننى أعود دائما الى البيت . اذهبى الى فراشك واستريحى . وسوف تشعرين انك أحسن .

فتعلقت بى من جديد وأخذت تربت على ذراعى وتدس قبضتيها المكورتين فى خاصرتى وفى جيوبى حتى خشيت أن تعثر على

الشفرات . كانت دائما بنية ملاطفة ، مترددة ، مدهشة في اطوارها وتقلباتها . ولم تلبث فجأة أن تخلت عني ووقفت عن كثب مني رافعة الرأس شاخصة العينين بغير دموع . فقبلت وجنتها الصغيرة وشعرت بالدم المتجمد تحت ملمس فمي .. ولم البث ان استدرت الى الباب واسرعت بالابتعاد . ولعلي هربت منها ومن ماري — خصوصا بعد أن سمعت خطواتها الرتيبة تهبط على السلالم .

الفصل الثاني والعشرون

كان المد في ارتفـــــاع .

خضت في مياه الخليج الدافئة وتسلقت الى داخل « المختلى » والموج الواني يدخل ويخرج معزقا نصفي الأسفل وناثرا من حولى ما لاعدد له من قناديل البحر الصغيرة التى كانت ذؤاباتها تلتصق بساقى وبطنى فتحزنني وتؤلمني .

واستحال المطر الآن الى غلالة رقيقة كست النجوم ومصابيح البلدة حتى بدت كصفحة مضيئة قاتمة .

وجاءت موجة أقوى فرفعت ساقي حتى شعرت وكأنهما انفصلتا عني .

وشعرت بجسدى يلتهب تحت لدغات قناديل البحر . وعلى البعد لمحت سارية مركب صغيرة مارة ببرق ضوؤها ، ثم ما لبث الضوء أن اختفى بابتعادها .

لكن ضوء طوبللو ما زال بارقا لم ينطفىء . وضــوء جدى الاكبر الـكابتن هاولي ما زال ساطعا .

أما ضوئي فقد أفل وانطفأ . وليس أسود من ذبالة خامدة . وكم في الدنيا من حطام نفوس حالـكة السواد بعد أن خبا منها كل ضياء .

هناك وقت يعرض للمرء فيقرر فيه الانسحاب كريما مشرفا ، بعيدا عن كل أسلوب مأساوى أو ابتغاء معاقبة النفس أو الأسرة . مجرد وداع رفيق يعقبه حمام دافىء أو شريان مفتوح ـ بحردافىء أو شــفرة ماضــية .

واندفعت الى الداخل موجة متعالية فرفعت ســاقى وفخذى والقت بها الى جانب المختلى وانتزعت معطفى في خروجها .

ثم تدحرجت على فخذى وامتدت يدى الى جيبى الجانبى تلتمس علبة الشفرات حتى عثرت عليها . ومن عجب أنني تذكرت اليدين اللاطفتين الحانيتين لتلك التى تغمرني بضياء محبتها ، واذا يدى قد استعصى خروجها من جيبى المبتل . وشعرت كأنما اجتمع في هذه اليد كل ما في الـكون من ضياء وسناء .

ثم دفعتني هجمة من الأمواج والقت بي الى اقصى «المختلى».
وزادت حدة الموج . ولم يكن بد من مغالبة الميـــاه لكى اخرج ،
وكان على ان اخرج من « المختلى » . فاخـــذت اتدحرج وازحف
واندفع واتخبط فى مياه غطت صـــــدرى ، الى ان دفعنى تقلب
الأمواج الى جدار عتيق من كتب من المختلى .
كان لزاما على ان اخرج . كان لزاما على ان اعيـــد التعويذة
الى صاحبتها الجديدة وحاملة الضياء المتجدد .
والا خبا الضياء وانطفأت الشعلة .

تمت

روايات الهلال
تقدم الشهر القادم

سعادة الأسرة

بقلم الكاتب الكبير

ليوتولستوى

ترجمة

مختار الوكيل

هذه الرواية

ولد جون شتاينبك عام ١٩٠٢ فى مدينة ساليناس بولاية كاليفورنيا الأمريكية • وبعد أن درس العلوم فى جامعة ستانفورد باشر عددا من الاعمال المتعاقبة : عامل يدوى ، وصيدلى ، وحارس متسفر (للبضائع او الماشية) ، وقاطف فواكه ، ومساح للأراضى • وفى عام ١٩٢٩ اصدر روايته الاولى : (الكاس الذهبية) ، عن مورجان القرصان • وكانت اشهر مؤلفاته هى روايته (عناقيد الغضب) التى صدرت عام ١٩٣٩ ، وقد منحت جائزة بوليتزر ، وتدور احداثها حول اسرة من المهاجرين ذهبت تبحث عن العمل فى كاليفورنيا ، وهى تضارع فى تاثيرها القصة العالمية المشهورة (كوخ العم توم) • وتشمل رواياته الاخرى : (شرق عدن) ، و (عن الفئران والرجال) ، و (اللؤلؤة) ، و (يوم الخميس الحلو) ، و (كانارى رو) ، الى جانب مجموعات من القصص القصيرة • وفى عام ١٩٦٢ منح جون شتاينبك جائزة نوبل فى الآداب ، وقد توفى عام ١٩٦٨ •



١٥ قرشا